مكتبة
t.me/soramnqraa

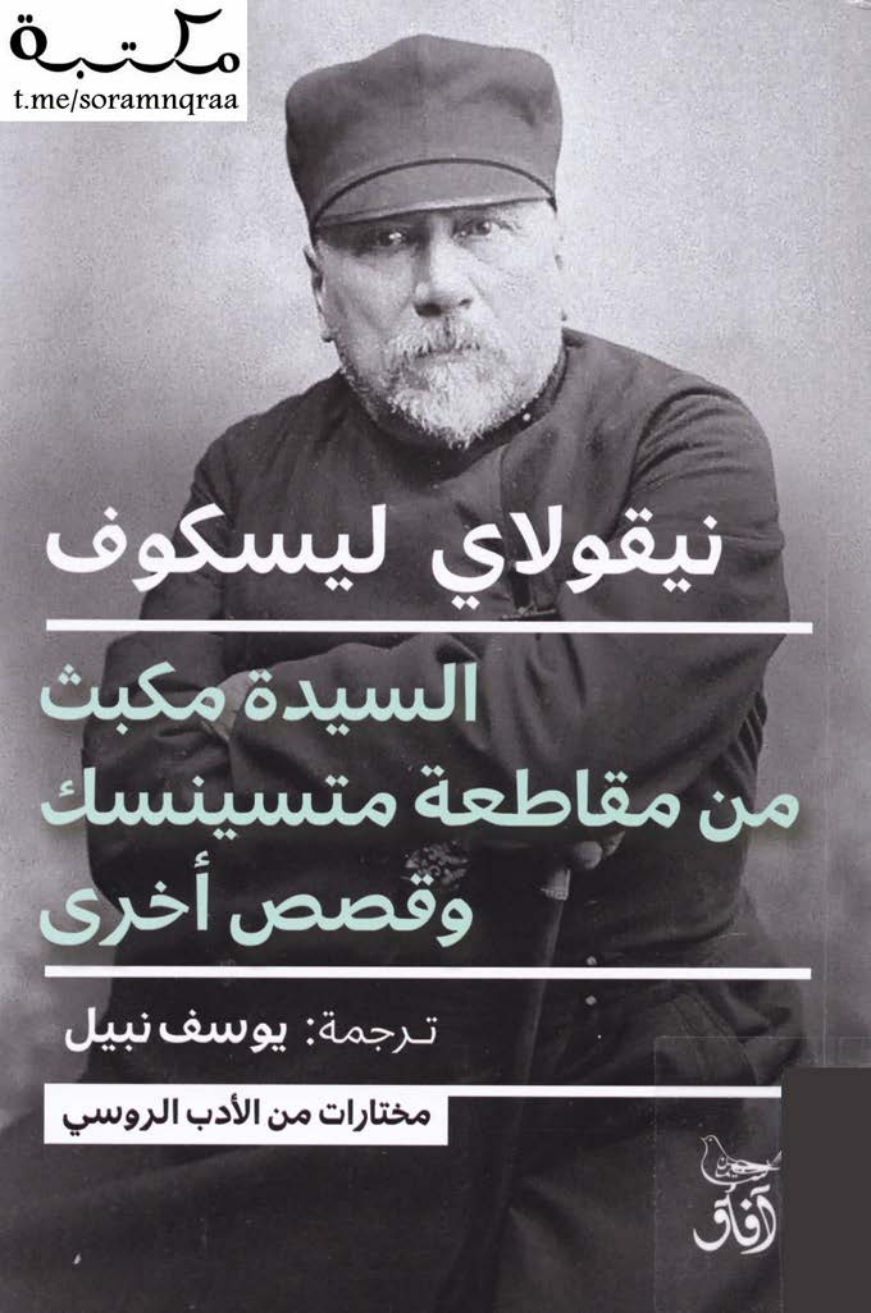

نيقولاي ليسكوف

السيدة مكبث من مقاطعة متسينسك وقصص أخرى

ترجمة: يوسف نبيل

مختارات من الأدب الروسي

آفاق

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود
telegram @soramnqraa

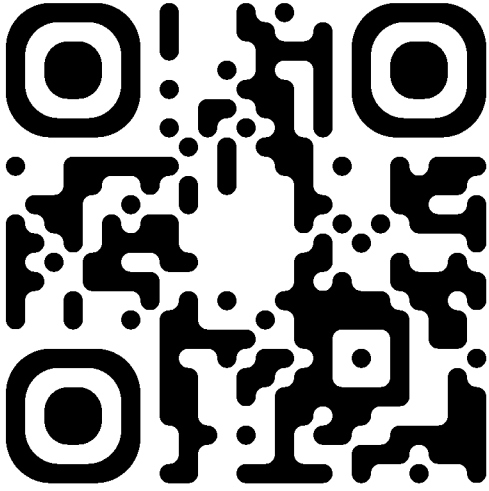

لن ننسى تشرين ٢٠٢٣

لن ننسى غزة والشهداء

السيدة مكبث من مقاطعة متسينسك

نيقولاي ليسكوف

- المؤلف: نيقولاي ليسكوف
- العنوان: السيدة مكبث من مقاطعة متسينسك وقصص أخرى
- ترجمة: يوسف نبيل
- الطبعة: الأولى 2022
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

مكتبة
t.me/soramnqraa

12 1 2024

رقم الإيداع:
٢٠٢٢ / ١٠٣٠٩
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 339 - 8

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

نيقولاي ليسكوف

السيدة مكبث من مقاطعة متسينسك

وقصص أخرى

مكتبة 1632

ترجمة

يوسف نبيل

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

ليسكوف، نيقولاي

السيدة مكبث من مقاطعة متسينسك وقصص أخرى

نيقولاي ليسكوف

ترجمة: يوسف نبيل

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2022

224 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 10309 / 2022

الترقيم الدولي 978 - 977 - 765 - 339 - 8

1 - روايات

2 - العنوان

مقدمة المترجم

يحدث أحيانًا أن تتوارى خلف الواجهة مواهب عظيمة لظروف تاريخية واجتماعية مختلفة. لا شك أن نيقولاي ليسكوف (١٨٣١-١٨٩٥) هو واحد من هذه المواهب العظيمة التي توارت لبعض الفترات؛ ثمنًا للصراع السياسي والاجتماعي الذي احتدم في روسيا في زمنه، واستمر بعدها لفترة طويلة.

وُلِدَ نيقولاي ليسكوف في عام ١٨٣١ في إحدى قرى مقاطعة أوريول؛ أي بعد ولادة العملاق تولستوي بثلاثة أعوام وحسب. كان أبوه من رجال الكنيسة، وأمه ابنة لأحد النبلاء. تركت فيه البيئة القروية والوسط الديني أثرًا بالغًا سيتضح بعد ذلك في أعماله.

عمل ليسكوف لفترة من الوقت في مجلس المحكمة الجنائية بأوريول، كما عمل لفترة أخرى في شركة تجارية تابعة لأحد رجال الأعمال، جعلته يسافر إلى أنحاء كثيرة في روسيا المترامية الأطراف؛ الأمر الذي أكسبه خبرة اجتماعية هائلة ظهرت آثارها بعد ذلك في أعماله. لن ننخرط طويلًا في سرد أحداث حياته، ولكننا سنشير إلى أنه رجل عصامي تمامًا، اضطر إلى تحمل مسؤولية أسرته بعد وفاة الأب، والعمل منذ فترة مبكرة نسبيًّا، والجمع بين الدراسة والعمل.

إذا ركَّزنا على العامل الأدبي فسنجد حادثة مبكرة أثرت على مشواره الأدبي لفترة طويلة. بدأ ليسكوف النشر في السادسة والعشرين من عمره تقريبًا، حيث نشر بعض المقالات في جريدة «أخبار سان بطرسبرج»، فضح فيها فساد بعض الدوائر مثل الأطباء العاملين في سلك الشرطة؛ الأمر الذي أدى إلى تعرضه لحرب من قِبلهم، وتدبير اتهام بالرشوة له، وإجباره على الاستقالة من الجريدة.

نشر بعد ذلك قصصًا كثيرة في مجلات وصحف متنوعة؛ بعضها باسم مستعار، وبعضها باسمه الحقيقي. في عام ١٨٦٢ نشر روايته الضخمة «لا مفر»، وفي عام ١٨٧٠ نشر رواية ضخمة أيضًا بعنوان: «الخناجر المسلولة»، وقد أدت هاتان الروايتان اللتان لا تعدان الأفضل فنيًّا وسط مجمل أعماله في رأي بعض النقاد إلى حجبه عن دوائر عديدة من دوائر النقاد والمثقفين في هذا الوقت؛ الأمر الذي امتد طويلًا بعد اندلاع الثورة البلشفية.

لفهم ما حدث علينا أن نعود إلى الصراع الدائر في هذه الفترة بين الدوائر اليسارية والليبرالية والثورية والعدمية. اجتاحت الفوضى المجتمع الروسي في تلك الفترة، وبدا أن الأمور لن تستمر على هذا المنوال، ومن ثم بدأت دوائر المثقفين في رسم خارطة الطريق.

في العددين السابقين من سلسلتنا تابعنا الظروف الاجتماعية والسياسية التي أحاطت بالريف والمدينة في روسيا إبان عصر القنانة. صحيح أنه صدر قانون في عام ١٨٦١ بإلغاء القنانة، وأُبطلت العقوبات الجسدية، لكن ظل الفلاح فقيرًا، غير قادر على الخروج من دائرة

الفقر، وتزامن ذلك مع انحدار طبقة النبلاء، وتأثر أغلب الدوائر الثقافية الروسية بالأفكار الثورية والعدمية.

في روايتَي ليسكوف السابق ذكرهما هاجم بشدة دوائر العدميين، مثلما فعل دوستويفسكي في روايته «الشياطين»، بل وربما فاقه حِدة. أدى ذلك إلى إهمال الكثير من النقاد والمجلات له، والتي سيطرت عليها حينها الأفكار الثورية. بالطبع بعد اندلاع الثورة البلشفية تم تجاهل أعمال ليسكوف لمعاداته للثوريين والعدميين الروسيين، وهجائه لهم هجاء شديدًا. تجدر بنا الإشارة إلى أن ليسكوف ليس يمينيًّا، ولم يؤيد الحكم القيصري، ولا يمكن اعتباره رجعيًّا بأي حال من الأحوال، وتمتلئ أعماله بهجاء شديد لطبقات الحكام، لكن صراعه مع الأفكار العدمية يعود إلى طريقة فهمه للمجتمع الروسي وتراثه الأخلاقي والروحي والديني.

نيقولاي ليسكوف كاتب غزير الإنتاج، وأعماله متنوعة بدرجة باهرة. هو حكَّاء ماهر من الطراز الأول، وأدى تنوع أعماله إلى صعوبة تصنيفها تصنيفًا سهلًا. تناول في بعض أعماله مثلًا شخصيات من رجال الدين الروسيين الشعبيين، وقدَّم بعضهم بصورة إيجابية جدًّا، وبعضهم بصورة شديدة السلبية. سيطرت على أغلب أعماله نبرة ساخرة ساحرة. نجد في أعمال أخرى له حكايات صاخبة ومليئة بالجرائم والأحداث المروعة، وفي مرحلة أخرى، خاصة بعد تأثره الشديد بتولستوي وتعاليمه الدينية، نجد حكايات على الطراز التولستويّ المتأخر، مليئة بحكمة مسيحية أخلاقية عملية، لكنها أفضل من قصص تولستوي

المتأخرة من حيث جمال الحكاية وعدم طغيان الموعظة. نجد له أيضًا حكايات مليئة بالنقد والهجاء الاجتماعيين، يُشرِّح فيها طبقات كثيرة ومتنوعة جدًّا في المجتمع الروسي، كما نجد حكايات تناولت الطبقات العسكرية والبيروقراطية الحكومية، وتمتلئ حكاياته أيضًا بالشخصيات الشعبية الروسية التي نجد فيها مزيجًا من القداسة والحماقة، مثل من نطلق عليهم أحيانًا في مصر «الدراويش».

يصعب إذن تصنيف أعمال ليسكوف تحت نوعية أدبية واحدة، لكن الأمر المؤكد أنه أبرز وسط هذه الحكايات موهبة في السرد والحكي رائعة، كما عبَّر تعبيرًا عميقًا عن المجتمع الروسي في أيامه. قال البعض عنه إنه أشد الكُتَّاب إخلاصًا للروح الروسية، وإنه خير تعبير عن العصر القيصري.

بعد أعوام طويلة من وفاته، وبعد انتهاء حظر نشر أعماله في بداية العصر السوفييتي، أعاد النقاد له وضعه واعتباره. لقد ظُلِم ليسكوف بسبب ما تعرض له من هجوم على أعماله بسبب آرائه السياسية، كما أنه ظهر في عصر العملاقين: تولستوي ودوستويفسكي؛ الأمر الذي قد يكون عطَّل انتشار أعماله في الخارج لبعض الوقت، حيث تركزت الترجمة الغربية في البداية على ترجمة أعمال العملاقين.

تُرجمت أعماله إلى لغات عديدة، وبحسب معلوماتي لم يُترجم له إلى العربية سوى عمل واحد: «الجوَّاب المسحور»، من ترجمة المبدع العراقي الكبير غائب طعمة فرمان.

تضم هذه المجموعة ثلاث قصص مختلفة الشكل والنكهة، حاولت

فيها أن أقدم اتجاهات مختلفة من قصص ليسكوف. في قصة «السيدة مكبث»، وهي من أشهر قصصه، سنجد الحكاية الصاخبة والانفعالات المرعبة والجرائم المريعة، وفي قصة «فنان الشعور المستعارة» سنلتقي بحكاية مؤلمة وساخرة عن حياة نوعية مختلفة من الأقنان غير الفلاحين قبل إلغاء القنانة، وفي قصة «خداع» سنجد النبرة الساخرة ذاتها، ولكن تلك المرة يصوِّر لنا ليسكوف حياة الضباط الروس الذين ينتقلون من مكان إلى مكان داخل أراضي الإمبراطورية الشاسعة. يهاجم ليسكوف في هذه القصة أيضًا العنصرية البغيضة، ولكن بصورة ذكية وغير مباشرة، ومن ثم تمتلئ الحكاية بأوصاف وأحاديث وأفكار عنصرية تُعبِّر عن وجهات نظر أصحابها الذين يسخر منهم ليسكوف بحنكة شديدة.

أتمنى أن تروق هذه القصص للقارئ، وأن تكون فرصة للتعرف على أحد أهم أقلام العصر الذهبي الروسي في الأدب.

* * *

السيدة ملكبث
من مقاطعة متسينسك

الانطباع الأول يدوم

(حِكمة)

الفصل الأول

في هذا الجزء من البلاد يحدث أحيانًا أن يلتقي المرء بأشخاص، مهما مرت أعوام طويلة على لقائه بهم، ما إن يتذكرهم حتى يقشعر بدنه. كاترينا لفوفنا إسماعيلوفا، زوجة التاجر، واحدة من هؤلاء الأشخاص، وقد لعبت دور البطولة ذات مرة في دراما مريعة، بدأ نبلاؤنا بعدها يسمونها: «السيدة مكبث من مقاطعة متسينسك».

لم تولد كاترينا لفوفنا باهرة الجمال، لكنها تمتعت بصورة عامة بهيئة لطيفة جدًّا. بلغت أربعة وعشرين عامًا تقريبًا، ولم تكن فارعة الطول، لكنها تميزت بالرشاقة، وبدا عنقها كما لو أنه مصنوع من الرخام، واتسم جسدها بالتناسق، وحظيت بكتفين مستديرتين، وصدر قوي، وأنف صغير مستقيم، وعينين سوداوين تشعان بالحيوية، وجبهة بيضاء عريضة، وشعر أسود يميل قليلًا إلى الزرقة. أتت من نواحي توسكار من مقاطعة كورسك، وتزوجت من تاجرنا إسماعيلوف، ولم تتزوجه بسبب الحب ولا كنَّت له أي عاطفة، لكن لأنه تودد إليها وغازلها، وكانت فتاة فقيرة، ولم يكن بوسعها أن تنتقي عريسًا من وسط مجموعة كبيرة. حظي آل إسماعيلوف بمكانة مرموقة في مدينتنا، فقد تاجروا في الدقيق، كما

امتلكوا مطحنة ضخمة في المقاطعة أجَّروها لغيرهم، وامتلكوا أيضًا بستانًا مربحًا عند ضواحي المدينة، وكذلك منزلًا رائعًا. بصورة عامة كانوا تجارًا أغنياء. علاوة على ذلك لم يكن عدد أفراد الأسرة كبيرًا. تألفت الأسرة من بوريس تيموفيتش إسماعيلوف، وقد بلغ الثمانين تقريبًا، وترمل منذ وقت بعيد، وابنه زينوفي بوريسيتش، زوج كاترينا لفوفنا، وقد تخطى الخمسين من العمر، بالإضافة إلى كاترينا ذاتها، ولا أحد آخر. لم تنجب كاترينا لفوفنا بالرغم من مرور خمسة أعوام على زواجها. لم يحظَ زينوفي بأطفال أيضًا من زوجته الأولى التي عاش معها عشرين عامًا قبل أن يترمل ويتزوج كاترينا لفوفنا. لقد تمنى أن يهبه الله من زواجه الثاني وريثًا تؤول إليه تجارته ورأس ماله، لكن لم يكن له حظ أيضًا مع كاترينا لفوفنا.

أحزن هذا الأمر زينوفي بوريسيتش كثيرًا، بل وأحزن أيضًا العجوز بوريس تيموفيتش، وكذلك كاترينا لفوفنا بطبيعة الحال. الله وحده يعلم كم كانت لتسعد لو وُهِبت نعمة أن تنجب طفلًا في ظل هذا الملل القاتل الذي عانت منه في عليتها المغلقة، والسياج العالي المحيط بالمنزل، وكلاب الحراسة المحررة؛ الأمر الذي جعلها تعاني من كآبة وصلت بها إلى حالة من الخدر، كما أنها ملت من سماع توبيخات من قبيل: «لماذا تزوجتْ؟ ما الجدوى من أن تربط مصير رجل بها وهي غير قادرة على الإنجاب؟»؛ الأمر الذي جعلها تشعر كما لو أنها ارتكبت جريمة في حق زوجها وحميها، بل وفي حق سلالة التجار الأمينة برمتها.

بالرغم من كل الثروة والوفرة اللتين اكتنفتا حياة كاترينا لفوفنا في بيت حميها، فإنها شعرت بملل شديد. لم تزُر أحدًا إلا مرات قليلة، وإذا اصطحبها زوجها في زيارة إلى أي من أصدقائه التجار، لا تشعر بالسرور. التجار صارمون، يراقبون بدقة كيف تجلس وكيف تسير وكيف تنهض، بينما اتسمت شخصية كاترينا لفوفنا بالحماسة؛ فنظرًا لأنها عاشت حياة فتاة فقيرة، تعودت على البساطة والحرية. تعودت على الركض بالدلاء إلى النهر، وكان بوسعها أن تعوم فيه بقميصها عند رصيف الميناء، وكذلك كانت تنثر بذور عباد الشمس على أي شاب عابر من البوابة. أما هنا فجميعهم مختلفون تمامًا. يستيقظ حموها وزوجها في ساعة مبكرة، ويشربان الشاي في السادسة، ثم يذهبان إلى العمل، بينما تظل تنتقل من غرفة إلى أخرى في ملل. كل شيء حولها نظيف وهادئ وفارغ؛ المصابيح موقدة أمام الأيقونات الدينية، ولا يتناهى إلى آذانها صوت أي كائن حي أو إنسان.

تذرع كاترينا لفوفنا الغرف ذهابًا وإيابًا، وتتثاءب مللًا، وتصعد درجات السلم إلى غرفتها الزوجية الصغيرة الموجودة في الدور العلوي. تجلس فيها، وتراقب الرجال وهم يعلقون القنب في مخازن الغلال، أو كيف يملأون الأشولة بالطحين، ثم تتثاءب مجددًا. تبتهج بشعورها بالنعاس، ومن ثم تغفو لساعة أخرى، وتستيقظ لتجد نفسها في الملل الروسي ذاته؛ الملل الذي يختبره المرء في منزل أحد التجار؛ الملل الذي يُقال عنه إنه يُمتِّع صاحبه إلى درجة أن يخنقه. لم تكن

كاترينا لفوفنا من محبي القراءة، وعلاوة على ذلك لم يحوِ المنزل أي كتب عدا: «سيرة آباء كييف القديسين».

عاشت كاترينا لفوفنا إذن حياة مملة في منزل حميها الثري طوال خمسة أعوام منذ تزوجت هذا الزوج الفاتر، لكن أحدًا لم يوجِّه أدنى انتباه كالعادة إلى هذا الملل.

* * *

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثاني

في الربيع السادس لزواج كاترينا لفوفنا انفجر سد طاحونة[1] آل إسماعيلوف. في هذا الوقت تحديدًا -كما لو أن الأمر قد حدث عمدًا- تراكم عليهم قدر كبير من العمل، وصارت الخسائر ضخمة، فقد انزاحت المياه إلى المستوى السفلي من قناة المطحنة، ولم يكن من الممكن إيقاف هذا التيار السريع. جمع زينوفي بوريسيتش عمالًا من المنطقة برمتها للمطحنة، وقضى وقته كله هناك لعلاج الأمر، وتولى العجوز إدارة العمل في المدينة، بينما عانت كاترينا لفوفنا من البقاء وحيدة في المنزل لأيام كاملة. في البداية شعرت بالملل من غياب زوجها، ثم بدا لها الأمر أفضل في غيابه؛ ففي وحدتها شعرت بمزيد من الحرية. لم يَمِل قلبها قَطُّ إليه، وعلى الأقل في غيابه لم يعد أحد يتسلط عليها.

ذات مرة جلست كاترينا لفوفنا بمفردها عند نافذة عليتها. تثاءبت طويلًا، ولم تفكر في أمر بعينه، وفي النهاية خجلت من طول التثاؤب.

(١) سد يُشيَّد عبر مجرى مائي ليرفع مستوى المياه بحيث تدور عجلة الطاحونة المائية.

بدا الطقس في الخارج ساحرًا؛ دافئًا ومشرقًا ومبهجًا، ولاحت الطيور المختلفة عبر سياج الحديقة الخشبي الأخضر، وبان كيف ترفرف بأجنحتها، منتقلة من غصن إلى غصن. قالت كاترينا لفوفنا في نفسها: «لماذا أتثاءب حقًّا؟ ربما يجدر بي أن أنهض وأتمشى قليلًا في الساحة الخارجية أو أتنزه في الحديقة».

ألقت كاترينا لفوفنا معطفًا قديمًا ثقيلًا على كتفيها وخرجت.

كانت الأجواء في الساحة مشرقة، وكان بوسع المرء أن يتنفس بعمق، وتناهت إلى الآذان عند ممر مخازن الغلال ضحكات مرحة. سألت كاترينا لفوفنا الكتبة العاملين لدى حميها:

- ما الذي يبهجكم هكذا؟

أجابها الكاتب العجوز:

- لقد علَّقوا هنا خنزيرًا حيًّا يا سيدتي كاترينا لفوفنا.

- أي خنزير؟

أجابها كاتب شاب بجرأة ومرح، وكان ذا وجه جريء ووسيم، محاط بتجعيدات سوداء كالراتينج[1]، وقد بدأت بعض الشعيرات تنبت على لحيته:

- الخنزيرة أكسينيا التي أنجبت ابنًا ودعته فاسيلي، ولم تدعُنا إلى حفل عماده.

---

(١) مادة صمغية.

في تلك اللحظة بان الوجه السمين المتورد للطاهية أكسينيا من خلف وعاء الطحين الضخم المعلق على عارضة الميزان. سبتهم، وحاولت أن تلتقط الوزن الحديدي من الميزان قائلة:

- عليكم اللعنة أيها الشياطين!

عاود الشاب الوسيم المتورد حديثه، وقد أدار الدلو، وألقى على الطاهية بعض الأشولة المكوَّمة في إحدى الزوايا:

- إنها تزن ثمانية بودات[1] قبل تناول الغداء، لكن عندما تأكل التبن، لا يعود بالإمكان تحديد وزنها.

بدأت المرأة تعود إلى طبيعتها وهي تسبهم مازحة، وفي الوقت نفسه قالت كاترينا لفوفنا مازحة، وقد وقفت على العارض الخشبي وتعلقت بالحبال:

- ولكن كم سأزن؟

أجابها الشاب الوسيم ذو الوجه المتورد سيرجي، وقد وضع الثقل على الميزان:

- ثلاثة بودات وسبعون رطلًا. مذهل!

- لماذا أنت متفاجئ؟

- لأن وزنكِ ثلاثة بودات يا كاترينا لفوفنا. أظن أن بوسعي أن أحملكِ على ذراعَي طوال اليوم ولا أشعر بالتعب، بل بالسرور وحسب.

---

(١) البود: وحدة وزن روسية قديمة.

قالت كاترينا لفوفنا وقد تورد وجهها قليلًا حيث لم تسمع مثل هذه الأحاديث منذ وقت طويل:

- لماذا؟ ألستَ مثل بقية البشر؟ سوف تتعب بالطبع.

وشعرت باندفاع مفاجئ ورغبة في التحدث والانخراط في أحاديث مرحة وفكهة.

أجاب سيرجي على ملاحظتها قائلًا:

- يا إلهي! لو الأمر في يدي لحملتكِ إلى الأراضي العربية السعيدة[1].

قال فلاح من الذين انهمكوا في ملء الأشولة بالطحين:

- إنك لا تفكر بصورة صحيحة أيها الشاب. ما الذي تظنه يُشكِّل الوزن الحقيقي فينا؟ أتظن الجسد هو الذي يزن؟ إن أجسادنا يا عزيزي لا تزن شيئًا وليست لها أهمية، بل هي قوتنا؛ قوتنا هي التي لها وزن حقيقي، لا أجسادنا.

قالت كاترينا لفوفنا مجددًا، ولم تستطع أن تمنع نفسها من التحدث:

- صحيح. عندما كنت فتاة صغيرة بدوت أقوى كثيرًا بفضل قوة عاطفتي. لم يكن حينها بوسع أي رجل عادي أن يغلبني.

سأل الشاب الوسيم:

---

(١) العربية السعيدة أو المباركة هو الاسم الذي استخدمه الجغرافيون اليونانيون والرومان من بعدهم في تسمية الجزء الأكبر من شبه الجزيرة العربية الواقع في غرب القارة الآسيوية. وهو أحد الأقسام الثلاثة، بالإضافة إلى العربية الصحراوية والعربية الصخرية في شمال الجزيرة العربية.

- إذا كان الأمر كذلك اسمحي لي بتناول يدكِ.

ارتبكت كاترينا لفوفنا، لكنها مدت إليه يدها. عندما اعتصر سيرجي يدها بيده بشدة دفعته بعيدًا قائلة:

- آاه! لا تضغط على الخاتم، إنه يؤلمني.

ترك الشاب يد سيدته، وجعلته دفعتها يتراجع خطوتين. تعجب الفلاح قائلًا:

- أهكذا تحكم على امرأة؟

- لا، دعني أجرب اعتصار يدك أنت لترى.

هكذا أجابه سيرجي، وهو يهذب خصلات شعره بيده.

قالت كاترينا لفوفنا بمرح وقد رفعت مرفقيها:

- حسنًا، جرِّب إذن.

احتضن سيرجي سيدته الشابة وضغط صدرها القوي على قميصه الأحمر. ما إن حركت كاترينا لفوفنا كتفيها، حتى حملها سيرجي ورفعها عن الأرض وأمسكها بيديه جيدًا، وضمها إليه، ثم أنزلها بهدوء على دلو الوزن المقلوب.

لم تنجح كاترينا لفوفنا في أن تُظهِر أيًّا من مظاهر قوتها التي اختالت بها. عدَّلت وضعها وقد احمر وجهها تمامًا، وهي جالسة على دلو الميزان، وقد سقط المعطف من على كتفيها، وخرجت بهدوء من مخزن الغلال، بينما تنحنح سيرجي الشاب وصاح:

- ما بكم أيها المغفلون بحق العذراء! لا تتثاءبوا، واملأوا الأشولة،

وأعيدوا ضبط الميزان.

بدا الأمر كما لو أنه لم يولِ أي انتباه لما حدث حالًا.

قالت الطاهية أكسينيا بعد ذلك وقد تهادت خطواتها خلف كاترينا لفوفنا:

- هذا اللعين سيريوجا[1] يغوي البنات دائمًا. يسرقهن جميعًا بوسامته، فلديه جسد ووجه جميلان، ومن ثم سرعان ما تصير الخطية جذابة. ويا له من وغد متقلب المزاج والأحوال!

قالت سيدتها الشابة السائرة أمامها:

- وماذا عنكِ يا أكسينيا؟ ألا يزال صاحبكِ حيًّا؟

- لا يزال حيًّا يا سيدتي، ولماذا لا يكون حيًّا؟! إنهم يحيون دائمًا في مكان لا حاجة لهم فيه.

- وماذا يفعل؟

- آاه! لا يفعل شيئًا. يتسكع. يعيش دائمًا وسط صحبة ويتسكع.

- أيعيش عندكِ هذا الشاب منذ فترة طويلة؟

- أي شاب؟ أتقصدين سيرجي؟

- نعم. منذ شهر. لقد عمل سابقًا عند آل كوبتشنوف، ثم طرده السيد هناك. (خفضت أكسينيا صوتها وأكملت) يُقال إنه كان على علاقة بزوجة السيد. كم يتحلى هذا اللعين بالجرأة!

---

(١) سيريوجا وكذلك سيريوجكا تدليل سيرجي.

الفصل الثالث

خيَّم شفق حليبي دافئ على المدينة. لم يعد زينوفي بوريسيتش من عمله عند السد بعد. غاب الحمُ بوريس تيموفيتش عن المنزل هو أيضًا، فقد ذهب إلى واحد من أصدقائه القدامى في ضيعته، وقال ألا ينتظروه على العشاء. مضت كاترينا لفوفنا إلى عليتها في ساعة مبكرة بسبب شعورها بالفراغ، وفتحت نافذتها، واتكأت على الإفريز وانهمكت في تقشير بذور عباد الشمس. أنهى الخدم عشاءهم في المطبخ ومضوا عبر الفناء لينامواا؛ فمنهم من ينام تحت السقيفة، ومنهم من ينام في مخزن الغلال، ومنهم من ينام في مخازن التبن العالية ذات الرائحة النفاذة. كان سيرجي آخر من خرج من المطبخ. تمشى في الفناء، وحرَّر الكلاب من سلاسلها وصفَّر عندما مر بالقرب من نافذة كاترينا لفوفنا، ونظر إليها وانحنى لها بالتحية.

قالت له كاترينا من نافذة عليتها بهدوء، وقد صار الفناء فارغًا كالبرية:

- مرحبًا.

بمرور دقيقتين تناهى إلى كاترينا لفوفنا من خلف باب عليتها الموصد صوت أحدهم يقول:

- سيدتي.

سألت كاترينا لفوفنا بعد أن شعرت بالخوف:

- من؟

أجابها صاحب الصوت:

- لا تخافي. أنا سيرجي.

- ماذا تريد يا سيرجي؟

- لديَّ أمر أود أن أُحدِّثك فيه يا كاترينا لفوفنا. أرجو أن تتعطفي وتسمحي لي بطلب واحد صغير. اسمحي لي بالدخول إليكِ لدقيقة.

أدارت كاترينا المفتاح في القفل، وسمحت لسيرجي بالدخول. سألته وقد ابتعدت لتقف عند نافذتها:

- ماذا تريد؟

- جئت إليكِ يا كاترينا لفوفنا لأسألكِ عما إذا كان لديكِ أي كتاب يمكنكِ أن تعطيه لي لأقرأه. الملل يعذبني.

- ليس لديَّ أي كتب يا سيرجي، وأنا لا أقرأ الكتب.

- يا للملل!

- ما الذي يُشعِرك بالملل؟

- عذرًا، ولكن كيف لا أمل؟ أنا في ريعان الشباب، ونحن نعيش هنا كما لو أننا في دير، ولا شيء يلوح من المستقبل سوى الانزواء في هذه الوحدة حتى يمضي المرء لقبره. أشعر أحيانًا باليأس.

- ولماذا لا تتزوج؟

- يسهل قول ذلك يا سيدتي، ولكن أين هي المرأة التي يمكن أن تقبل بي؟ لست شخصية مهمة، ولن تتزوج بي ابنة أحد السادة، وكما تعرفين يا كاترينا لفوفنا، لم أنل تعليمًا بسبب الفقر الذي نعيش فيه هنا جميعًا. كيف يمكن لفتاة جاهلة أن تعرف ما هو الحب الحقيقي؟ لا بد أنكِ أدركتِ كيف يفهم التجار الأغنياء الحب، بل يمكن أن نقول إنكِ أنتِ شخصيًّا يمكن أن تصيري عزاءً لكل من يشعر صوبكِ بمشاعر حب، بينما هم يُبقونكِ في القفص كطير كناري.

خرجت فجأة الكلمات من شفتَي كاترينا لفوفنا:

- نعم، أنا أشعر بالملل.

- وكيف لا تشعرين بالملل يا سيدتي في مثل هذه الحياة؟! حتى لو لديكِ أحدهم لتواعديه -كما يفعل الآخرون- فلن تجدي فرصة للقائه.

- ماذا تقول؟ الأمر ليس كذلك. أظن أني لو أنجب طفلًا فسأصير سعيدة.

- اسمحي لي يا سيدتي أن أشير إلى أن الطفل لا يأتي هكذا من فراغ، بل بطريقة محددة. أيمكن بعد كل هذه الأعوام التي رأيتِ فيها كيف تحيا زوجات التجار ألا تكوني قد فهمتِ الأمر بعد؟ تقول الأغنية: «من دون حبيب عزيز تصير الحياة حزنًا ومعاناة». ويجب أن أخبركِ يا كاترينا لفوفنا أن هذه المعاناة قد أثَّرت على قلبي؛ يمكنني أن أقول إنها قد جعلته حساسًا جدًّا إلى حد أني أود لو أشق صدري بسكين حاد وأنتزع قلبي منه وألقيه عند قدميكِ. سوف يكون الأمر أسهل لي مائة مرة منه الآن.

حينها تهدج صوت سيرجي وارتجف جسده كله، واقترب خطوة من كاترينا لفوفنا:

- لا، اسمحي لي يا سيدتي. أنا أعرف وأرى وأشعر جدًّا، وأفهم أن قسمتكِ في هذا العالم ليست أيسر من قسمتي، لكن الآن وحسب (قالها بنفس واحد) الآن قد صار كل شيء بين يديكِ وتحت سلطانكِ.

- ماذا تعني؟ ماذا؟ لماذا جئت إليَّ؟ سوف ألقي بنفسي من النافذة.

قالت كاترينا لفوفنا ذلك، شاعرة أنها قد صارت خاضعة لسلطة الخوف العليا التي لا توصف، وأمسكت بحافة النافذة.

همس سيرجي بصلف وقد جذب السيدة بعيدًا عن النافذة واحتضنها بقوة:

- يا حياتي، يا فريدة، لماذا تلقين بنفسكِ من النافذة؟

- آاه! آاه! اتركني.

هكذا تأوهت كاترينا لفوفنا بهدوء، وقد خارت قواها تحت تأثير قبلات سيرجي الحارة، وضغطت نفسها طوعًا على جسده القوي.

حمل سيرجي السيدة على ذراعيه كطفلة، ومضى بها إلى الزاوية المظلمة.

حلَّ الصمت على الغرفة، ولم يقطعه شيء سوى التكتكات الهادئة لساعة جيب زوج كاترينا لفوفنا المعلقة أعلى الفراش، لكنها لم تزعجهما.

بعد مرور نصف ساعة قالت كاترينا لفوفنا، من دون أن تنظر إلى سيرجي، وهي تُعدِّل خصلات شعرها أمام المرآة الصغيرة:

- اذهب.

أجابها سيرجي بصوت سعيد:

- لماذا أنصرف الآن؟

- سوف يوصد حَمِي الباب.

- آه يا عزيزتي! يا عزيزتي! ما نوعية الناس الذين عرفتِهم وجعلوكِ تتصورين أن الباب هو الطريق الوحيد للدخول إلى امرأة؟ للمجيء إليكِ والانصراف من عندكِ أبواب في كل مكان.

هكذا أجابها الشاب، مشيرًا إلى الأعمدة الموجودة في الشرفة الخارجية.

الفصل الرابع

لم يعد زينوفي بوريسيتش إلى المنزل بعد مرور أكثر من أسبوع، وطوال هذه المدة قضت زوجته الليالي كلها، وحتى طلوع الصباح، مع سيرجي.

في هذه الفترة حدث الكثير في غرفة نوم زينوفي بوريسيتش؛ لقد شربا النبيذ الذي أتيا به من قبو الحمِ، وتناولا حلويات كثيرة، وانطبعت الكثير من القبلات على شفتَي السيدة الحلوتين، وكثرت المداعبات لخصلات شعرها السوداء على الوسائد الطرية. لكن الطُّرُق لا تظل مُعبَّدة طوال الوقت كمفرش الطاولة، بل لا بد أن تظهر بعض العوائق.

لم يستطع بوريس تيموفيتش النوم ذات يوم، ومن ثم ظل العجوز يتمشى بقميصه القطني المبرقش في أنحاء المنزل الهادئ، واقترب من إحدى النوافذ، ثم اقترب من نافذة أخرى، وإذا به يرى الشاب سيرجي يهبط بهدوء بقميصه الأحمر على العمود من نافذة غرفة زوجة ابنه. ما هذا؟ صاح بوريس تيموفيتش، وأمسك بقدمَي الشاب. استدار الأخير كي يضرب السيد بكل قوته على أذنه، لكنه توقف عن فعلته حينما أدرك الضجيج الذي سيثيره إذا فعل ذلك. قال بوريس تيموفيتش:

- انطق، أين كنتَ أيها اللص؟

- أجابه سيرجي:

- أين كنتَ؟ كنتُ أينما كنتُ يا بوريس تيموفيتش. لا سيد عليَّ.

- هل قضيت الليلة في غرفة زوجة ابني؟

- أنا أعلم أين قضيت ليلتي، واسمعني جيدًا يا بوريس تيموفيتش، ما حدث أيها العجوز قد حدث. لا تجلب العار إلى منزلك. قُل لي الآن ماذا تريد مني؟ ما الترضية التي تبتغيها؟

- الترضية التي أبتغيها هي أن أجلدك أيها الأفعى خمسمائة جلدة.

وافقه الشاب قائلًا:

- إنه ذنبي فافعل بي ما تريد. قل لي إلى أين أذهب وسآتي خلفك، ولتشرب حتى من دمي لو شئت.

اصطحب بوريس تيموفيتش سيرجي من خلفه إلى مخزنه الحجري، وضربه بالسوط حتى خارت قواه من فرط الضرب. لم يصدر سيرجي أنينًا واحدًا، لكنه عض كمي قميصه بأسنانه حتى يتحمل الضرب.

ترك بوريس تيموفيتش سيرجي في المخزن حتى يُشفى ظهره من الرضوض، ودفع إليه إناء خزفيًّا مليئًا بالماء، وأوصد عليه الباب بقفل كبير، وأرسل في استدعاء ابنه.

لكن لا يمكن في روسيا حتى الآن أن تمضي العربات مسرعة لمسافة مائة فرست على الطرق الريفية، ولم تعد كاترينا لفوفنا قادرة على العيش ساعة واحدة أخرى من دون سيرجي. اكتشفت فجأة مدى

إمكانات طبيعتها، وصارت وطيدة العزم بحيث لم يعد بالإمكان إيقافها. اكتشفت مكان سيرجي، وتحدثت معه من خلف الباب الحديدي، وهرعت لتبحث عن المفتاح.

شُدِه العجوز، فلم ينتظر مثل هذه الوقاحة الجريئة من امرأة مذنبة ظلت طوال الوقت قبل هذه اللحظة مذعنة دائمًا. بدأ يسب كاترينا لفوفنا قائلًا:

- ماذا تفعلين أيتها الـ...؟

- اتركه. أؤكد لك بكل صدق أنه لم يحدث أي شيء معيب بيننا.

صاح فيها:

- لم يحدث شيء معيب؟! ماذا فعلتِ معه ليلًا إذن؟ أكنتما تعيدان تنجيد وسائد زوجكِ مثلًا؟!

أما هي فقد ظلت تكرر الكلمة ذاتها: «اتركه». قال بوريس تيموفيتش:

- ما دام الأمر كذلك فإليكِ ما سيحدث: سيأتي زوجكِ، وسنمزقكِ أيتها الزوجة الشريفة بأيدينا في الإسطبل، أما ذلك الوغد فسوف أرسله غدًا إلى السجن.

هذا ما قرره بوريس تيموفيتش، لكن قراره لم يتم.

* * *

الفصل الخامس

تعشى بوريس تيموفيتش فطرًا[1] وعصيدة، وشعر فجأة بحرقة في المعدة، ثم تملكه شعور مريع بالغثيان، ومات قرابة الصباح، مثلما حدث كثيرًا أن ماتت الفئران في مخازن غلاله حينما أعدَّت كاترينا لفوفنا بنفسها طعامًا خاصًّا لها تُضيف إليه مسحوقًا أبيض خطيرًا عُهِد به إليها.

عاونت كاترينا لفوفنا سيرجي على الخروج من المخزن الحجري الذي لحميها، وتركته، أمام أعين الناس، ومن دون أي شعور بالخزي، يتعافى من ضربات حميها على فراش زوجها. دفنوا بوريس تيموفيتش دفنة مسيحية. لم تراود الشكوك أحدًا حيال ما حدث، ومات بوريس تيموفيتش. نعم، مات بعد أن تناول الفطر، كما يموت كثيرون عندما يتناولون الفطر. دفنوا بوريس تيموفيتش سريعًا، ولم ينتظروا وصول ابنه لأن الطقس قد صار دافئًا، ولم يجد المبعوث الذي أرسلوه زينوفي بوريسيتش عند المطحنة. لقد سمع زينوفي بوريسيتش عن غابة يمكن

(١) عيش الغراب (المشروم).

أن تُباع بثمن بخس على مبعدة مائة فرست، فذهب لرؤيتها من دون أن يخبر أحدًا عن وجهته.

بعد أن حدث ما حدث تشتت كيان كاترينا لفوفنا تمامًا. لم تكن من هؤلاء النساء الخجولات، لكن هنا صار من المستحيل أن يُخمِّن المرء ما الذي تفكر فيه. تسير الآن كالملكة، تُوجِّه أوامرها للجميع، ولا تدع سيرجي يفارقها للحظة. اندهش كل من في البيت مما يحدث، لكن كاترينا لفوفنا استطاعت أن تمد يدها المعطاءة للجميع، ومن ثم انقضت دهشتهم. لقد عرفوا عن علاقة سيدتهم بسيرجي لكنهم قالوا: «فلتفعل ما تشاء. الأمر أمرها، وهي من ستُسأل عنه».

في أثناء هذه الفترة تعافى سيرجي واسترد صحته، وعاد من جديد الشاب المليء بالحيوية الذي يحوم حول كاترينا لفوفنا، وعادا إلى قضاء أوقاتهما الحلوة، لكن الوقت لم يمر عليهما وحدهما؛ فسرعان ما عاد الزوج المهان زينوفي بوريسيتش بعد غيابه الطويل.

* * *

الفصل السادس

كانت الحرارة حارقة في المنزل بعد الغداء، وصار طنين الذباب مزعجًا. أغلقت كاترينا لفوفنا مصراعي نافذة غرفة النوم، وعلَّقت أيضًا وشاحًا صوفيًّا على النافذة من الداخل، واستلقت مع سيرجي ليستريحا على فراش التاجر المرتفع. لم تستطع النوم جيدًا، وغمر العرق وجهها وصارت أنفاسها حارة وثقيلة. تشعر كاترينا لفوفنا أنه قد حان وقت الاستيقاظ، والخروج إلى الحديقة لشرب الشاي، لكنها لا تستطيع أن تنهض من على الفراش. أخيرًا اقتربت الطاهية وطرقت باب الغرفة قائلة: «السماور بدأ يبرد تحت شجرة التفاح». نهضت كاترينا لفوفنا أخيرًا بصعوبة، وداعبت القط. فرك القط نفسه بينها وبين سيرجي، وكان جميلًا ورماديًّا وكبيرًا وسمينًا، وله شاربان كشاربي جامع الضرائب. ملَّست كاترينا فروه الناعم، فتوجه صوبها وغمس وجهه الكسول في صدرها القوي، وبدأ ينشد أغنية هادئة كما لو أنه يخبرها عن حبه. قالت كاترينا لفوفنا في نفسها: «ما الذي أتى بهذا القط إلى هنا؟ لقد وضعت بعض القشدة على إفريز النافذة هنا. لا بد أن الوغد قد أكلها. يجب أن

أطرده». لقد قررت وأرادت أن تمسك القط وترميه بعيدًا، لكنه مر من بين أصابعها كالضباب. واصلت كاترينا تفكيرها ولم تستفق تمامًا بعد: «لكن من أين جاء هذا القط؟ لم يكن هناك أي قط في غرفة النوم من قبل، فكيف دخل هذا القط الجميل إذن؟». أرادت أن تمسك القط ثانية، وأفلت منها مجددًا. «ماذا يحدث؟ أهو قط فعلًا أم ماذا؟». شعرت فجأة بالهلع، وتملكت هذه النوبة نومها ويقظتها معًا. نظرت كاترينا لفوفنا في أنحاء الغرفة ولم تجد قطًّا؛ لم يكن هناك سوى سيرجي الوسيم وهو يجذبها بيده القوية ليغمس وجهه الحار في صدرها.

نهضت كاترينا لفوفنا من نومتها، وجلست على الفراش، وظلت تُقبِّل سيرجي وتلاطفه، ثم رتَّبت الفراش الريشي وخرجت إلى الحديقة لتشرب الشاي.

كانت الشمس قد بدأت غروبها، وبدأ مساء ساحر وفاتن يحل على الأرض.

قالت كاترينا لفوفنا لأكسينيا وقد جلست على سجادة مفروشة تحت شجرة التفاح وهي تشرب الشاي:

- لقد نمت طويلًا. ماذا يعني هذا يا أكسينيوشكا[1]؟

سألتها هذا السؤال وهي تمسح طبق فنجان الشاي بمنشفة.

- ماذا يا سيدتي؟

---

(١) تدليل أكسينيا.

- لم يحدث الأمر في أثناء نومي، بل كنت مستيقظة، ورأيت قطًّا قد تسلل إليَّ.

- حقًّا؟

- نعم، تسلل إليَّ قط فعلًا.

حكت كاترينا لفوفنا كيف جاء إليها القط.

- ولماذا داعبتِه؟

- هكذا من دون سبب. لا أعرف حقًّا لماذا داعبته.

- رائع حقًّا.

- لا يمكنني التوقف عن الشعور بالدهشة من الأمر.

- لا بد أن شخصًا ما سوف يأتي إليكِ أو شيئًا ما سوف يحدث.

- نعم، ولكن ماذا سيحدث تحديدًا؟

- لا يمكنني يا صديقتي العزيزة أن أحدد الشيء الذي سيحدث بالضبط، لكن كل ما أنا متيقنة منه هو أن شيئًا ما سوف يحدث.

واصلت كاترينا لفوفنا:

- حلمت أولًا بالقمر ثم هذا القط.

- القمر في الحلم يعني طفلًا.

احمر وجه كاترينا لفوفنا. حاولت أكسينيا أن تكسب ثقتها فقالت:

- ألا تحبي أن آتي بسيرجي لكِ إلى هنا؟

أجابتها كاترينا لفوفنا:

- حسنًا، ولِمَ لا؟ عليكِ فعلًا أن تأتِني به. سوف أشرب الشاي معه هنا.

- حسنًا، حسنًا، سوف آتي به كما قلت.

هكذا قالت أكسينيا وتمايلت كالبطة في طريقها صوب بوابة الحديقة.

حكت كاترينا لفوفنا لسيرجي عما حدث. قال لها سيرجي:

- إنها مجرد أحلام.

- ولماذا لم أحلم مثل هذه الأحلام من قبل يا سيريوجا؟

- لأنه لم يحدث من قبل شيء يُذكَر. اعتدت فقط أن أنظر إليكِ من ثقب الباب وأتوق إليكِ توقًا شديدًا، أما الآن فيا للعجب! صرت أملك جسدكِ الأبيض كله!

عانق سيرجي كاترينا لفوفنا، ورفعها وأدارها في الهواء، ثم ألقاها مازحًا على السجادة الناعمة. قالت كاترينا لفوفنا:

- آخ! لقد دار رأسي. سيريوجا. (نادته وهي تتمطع وتتمدد على السجادة الفاخرة) تعالَ هنا واجلس بالقرب مني.

انحنى الشاب، وسار أسفل غصون شجرة التفاح المزهرة بزهور بيضاء، وجلس على السجادة عند قدمَي كاترينا لفوفنا.

- أحقًّا تقت إليَّ بشدة يا سيريوجا؟

- وكيف لا أتوق إليكِ؟!

- كيف لا تتوق؟! احكِ لي إذن عن ذلك.

- وكيف يمكنني أن أحكي عن ذلك؟ هل يمكنني أن أوضح لكِ كم تقت إليكِ؟ قد تقت هكذا.

- ولماذا يا سيريوجا لم أشعر أنك هائم بي؟ كما يقولون، يمكن للمرء أن يشعر بذلك.

صمت سيرجي. واصلت كاترينا لفوفنا أسئلتها وهي تداعبه:

- ولماذا أنشدت الأغاني ما دمت تتوق إليَّ؟ لماذا؟ لقد سمعتك بنفسي وأنت تغني في الممر.

أجاب سيرجي بجفاف:

- وماذا إذا غنيت فعلًا؟ حتى البعوض يطن طوال اليوم، لكنه لا يفعل ذلك مبتهجًا.

صمتا قليلًا. وصلت كاترينا لفوفنا إلى أقصى درجات البهجة من اعترافات سيرجي هذه. أرادت مواصلة الحديث لكن سيرجي ضنَّ عليها بذلك وصمت. ثم صاحت وهي تنظر إلى السماء الزرقاء الصافية عبر غصون شجرة التفاح السميكة اليانعة حيث لاح القمر في السماء صافيًا وكاملًا:

- انظر يا سيريوجا، يا لها من جنة! يا لها من جنة!

لمع ضوء القمر الذي تخلل أوراق وزهور شجر التفاح على وجه كاترينا لفوفنا وجسدها بأغرب الأشكال، وخيَّم الصمت على المكان، ولم يُسمع شيء سوى نسيم خفيف ودافئ يُحرِّك الأوراق الناعسة حركة

ناعمة، ويحمل العبير الرقيق للعشب والشجر المزهر. تثاقلت الأنفاس، ودعا كل شيء إلى الكسل والاستمتاع والرغبات الخفية.

لم تنل كاترينا لفوفنا إجابة من سيرجي، فصمتت مجددًا، وظلت تنظر إلى السماء عبر الألوان الوردية الشاحبة لثمر التفاح. لزم سيريوجا الصمت هو أيضًا، لكنه لم ينشغل بمراقبة السماء. أحاط ركبتيه بذراعيه، وركَّز بصره على حذائه طويل العنق.

ليلة ذهبية! هدوء وقمر وعبير ودفء رائع ومبهج. بعيدًا، خلف الوادي، وخلف الحديقة، انهمك أحدهم في غناء رنان، وخلف السياج، عند شجرة الكرز الكثيفة، رفرف عندليب وأنشد، وفي قفص معلق على عمود طويل اهتاج سمان نعس، وتصاعدت الأنفاس الثقيلة للجواد السمين خلف جدار الإسطبل، وعلى طول سور الحديقة، تجول قطيع من الكلاب من دون أن يثير أي ضجيج، وتلاشى عبر الظلال السوداء لمحلات الملح القديمة المتداعية.

استندت كاترينا لفوفنا إلى مرفقها، ونظرت إلى عشب الحديقة الممتد، وبدا أنه يلاعب انعكاس القمر الذي سقط أيضًا على زهور وأوراق الشجر. اكتسى كل شيء بهذه البقع الذهبية اللامعة والمتلألئة كفراشات نارية صغيرة، وبدا الأمر كأن العشب كله تحت الأشجار قد سقط في شِبَاك القمر، وسار يمضي من طرف الشبكة إلى طرفها الآخر.

نظرت كاترينا لفوفنا حولها وصاحت:

- آاه يا سيريوجا! يا لها من فتنة!

نظر سيريوجا حوله بلا مبالاة.

- ماذا بك يا سيريوجا لا تبدو سعيدًا؟ هل مللت من حبي؟

أجابها سيرجي بجفاف، وانحنى، وقبَّلها بكسل:

- ما هذا الكلام الفارغ؟!

قالت كاترينا لفوفنا بغيرة:

- أنت مخادع يا سيريوجا ولا تتحلى بالإخلاص.

أجاب سيرجي بصوت هادئ:

- لا أقبل هذه الكلمات منكِ.

- لماذا تُقبِّلني بهذه الطريقة؟

صمت سيرجي تمامًا. واصلت هي حديثها، مداعبة خصلات شعره:

- لا يتبادل أحد القبلات بهذه الطريقة سوى الأزواج والزوجات؛ هم من يُقبِّلون بعضهم إلى حد أن يمسحوا كل شيء من على شفاه بعضهم. أنت تُقبِّلني بهذه الطريقة التي تجعل ثمرة تفاح صغيرة تسقط من الشجرة على الأرض. (همست كاترينا وهي تدور حول حبيبها وتُقبِّله بشغف شديد) بهذه الطريقة! بهذه الطريقة!

بعدها ببرهة قصيرة قالت له:

- اسمع يا سيريوجا ما سأقوله لك. لماذا يصفونك طوال الوقت

وصفًا واحدًا: «مخادع»؟

- من هذا الذي يفتري عليَّ؟

- البعض يقول ذلك.

- ربما في وقت ما خدعت بعض التافهين.

- وما الذي يربطك بشخص تافه؟ لا يجب عليك حتى أن تحب شخصًا تافهًا.

- ما هذا الكلام؟ أعلينا أن نفكر أيضًا في أمور كهذه؟ يكفي مصدر إغواء واحد. يتعامل المرء مع امرأة ببساطة، ومن دون أي التزامات، ويجدها قد أحاطت بعنقه. هكذا هو الحب.

- اسمع يا سيريوجا، أنا لا أعرف شيئًا عن السابقات، ولا أريد أن أعرف عنهن شيئًا، لكني أعرف جيدًا كيف جذبتني بنفسك إلى هذا الحب، وأنت تعرف جيدًا مدى ما فعلته بإرادتي من أجل هذا الحب، وتعرف مدى دهائك، لذلك إذا خدعتني يا سيريوجا مع أي امرأة أخرى، فسامحني يا حبيبي على ما سأقوله لك، لكني لن أتركك حيًّا أبدًا.

شُدِه سيرجي.

- لكنكِ ضوئي الساطع يا كاترينا لفوفنا، أنتِ ترين بنفسكِ العلاقة التي تربط بيننا. يمكنكِ أن تلاحظي بنفسكِ أني في حالة كئيبة، وأنتِ لا تتخيلين مدى كآبتي الآن. ربما قد تخضب قلبي كله بالدماء.

- قل لي، قل لي يا سيريوجا ماذا يحزنك!

- وماذا أقول لكِ؟ حسنًا، فليعني الله، أول شيء هو أن زوجكِ سوف يعود، ثم ستقولين لي: سيرجي فيليبيتش، عليك أن تبتعد. عُد إلى فنائك الخلفي بصحبة الموسيقيين، وانظر من أسفل السقيفة كيف تشتعل الشمعة في غرفة كاترينا لفوفنا، وكيف تُعِد فراشها الوثير لتنام مع زوجها الشرعي زينوفي بوريسيتش.

مدت كاترينا لفوفنا ذراعها بمرح وأشاحت به قائلة:

- لن يحدث هذا.

- كيف لن يحدث؟ أنا أدرك جيدًا أن الأمر لا بد أن يحدث بهذه الصورة. أنا أيضًا يا كاترينا لفوفنا لديَّ قلب، وأشعر بالعذاب.

- كفاك حديثًا عن ذلك.

ابتهجت كاترينا لفوفنا بتعبير سيرجي عن غيرته عليها، وابتسمت، وعادت تُقبِّله، بينما واصل سيرجي حديثه، مبعدًا رأسه بهدوء عن كتفَي كاترينا لفوفنا العاريتين:

- عليَّ أن أكرر قولي إن وضعي الذي يُعتبر من أكثر الأوضاع هوانًا يجبرني على التفكير بهذه الطريقة، ليس لمرة واحدة، بل ربما لعشر مرات. لو كنتُ مثلًا مكافئًا لكِ؛ لو كنتُ سيدًا مثلًا أو تاجرًا، لظللت معكِ يا كاترينا لفوفنا، ولما افترقت عنكِ أبدًا. لكن احكمي بنفسكِ: أي شخص أنا إذا قورنت بكِ؟ لقد أدركت كيف سيجذبكِ من ذراعيكِ البيضاوين ويقودكِ إلى غرفة النوم، وعليَّ

أن أتحمل كل ذلك في قلبي، بل وربما يجعلني ذلك أصير شخصًا محتقرًا دائمًا. كاترينا لفوفنا، أنا لست كالآخرين الذين يعتبرون النساء جميعًا سواء، ويفرحون في كل الأحوال بأي امرأة. أنا أشعر بالحب فعلًا، وأشعر بأن ثعبانًا أسود يلدغ قلبي.

قاطعته كاترينا لفوفنا وقد شعرت بالأسف عليه:

- لماذا تقول لي كل ذلك؟

- كاترينا لفوفنا، كيف لا أقول لكِ كل ذلك؟ كيف؟ ماذا لو أن كل شيء قد اتضح ووُصِف له؟ وماذا لو أني لن أصير بعيدًا عنكِ مسافة طويلة فحسب، بل لم يعد لي وجود في هذا العالم غدًا، لا بالجسد ولا بالروح؟

هدَّأته كاترينا لفوفنا بمداعباتها:

- لا، لا، ولا تتحدث عن ذلك يا سيريوجا. لن يحدث ذلك، ولا يمكنني أن أعيش من دونك. إذا وصل الأمر إلى هذا الحد، فواحد منا لا يمكنه أن يستمر في العيش؛ إما هو وإما أنا، أما أنت فستكون معي في كل الحالات.

أجابها سيرجي بحزن، وقد هز رأسه قنوطًا:

- هذا غير ممكن يا كاترينا لفوفنا. أنا نفسي لم أعد سعيدًا بسبب هذا الحب. سأشعر بالرضا لو أحببت امرأة ليست أعلى مني مقامًا. كيف يمكنني أن أنعم بحبكِ إلى الأبد؟ أسيشرفكِ أن تكوني حبيبتي؟ أود أن أكون زوجكِ أمام هيكل الكنيسة المقدس.

سيستمر شعوري دائمًا بأني أقل قدرًا منكِ، ولكن على الأقل سأعلن للجميع المكانة التي صرت عليها باحترام زوجتي لي.

ذُهِلت كاترينا لفوفنا من كلمات سيرجي وغيرته عليها ورغبته في الزواج بها، وهي رغبة محببة دائمًا للمرأة، بغض النظر عن حجم الروابط التي تربطها بالرجل قبل الزواج. تشعر كاترينا لفوفنا الآن أنها مستعدة أن تلقي بنفسها في النيران من أجل سيرجي، أو في الماء أو في زنزانة، أو حتى تمضي للصلب. لقد حبَّبها في نفسه إلى حد أنه لم يعد هناك حد لإخلاصها له. أصابتها سعادتها بالجنون، وغلى الدم في عروقها، ولم تعد قادرة على سماع شيء آخر. مسَّت شفتَي سيرجي بكفها كي يتوقف عن الحديث، وأسندت رأسها إلى صدره، قائلة:

- أنا أعرف كيف أجعلك تاجرًا وأعيش معك كما يجب. كل ما عليك هو ألا تحزنني بلا جدوى قبل أن نهيئ أمورنا.

عادا مجددًا لتبادل القبلات والملاطفات.

في أثناء انغماس الكاتب العجوز في نومه في السقيفة، تناهت إليه في صمت الليل همسات ممزوجة بضحكات خافتة، كما لو أن بعض الصبية المكارين يفكرون في كيفية الاستهزاء بشيخوخة أحدهم، أو ربما بدت له الضحكات السعيدة الرنانة كما لو أن حوريات البحر يدغدغن أحدهم. لكن الحقيقة أنها كاترينا لفوفنا تتدحرج على السجادة الناعمة، ويلمع جسدها تحت ضوء القمر، وهي تمرح وتلعب مع الموظف الشاب العامل تحت إمرة زوجها. تساقطت عليهما الزهور البيضاء من

شجر التفاح المموج طويلًا حتى توقفت. في هذه الأثناء انقضت الليلة الصيفية القصيرة، وتوارى القمر خلف السقف المنحدر لمخازن الغلال العالية، ونظر شزرًا إلى الأرض، وظل يعتم ويعتم، وتصاعد لحن ثنائي ثاقب من قطتين على سطح المطبخ، ثم بانت أصوات خرخرة ومواء، ومن بعدها اندفعت قطتان أو ثلاث بضجيج على حزمة العوارض الخشبية المثبتة على السقف.

قالت كاترينا لفوفنا ببطء، وهي تنهض منهكة من على السجادة بقميصها وتنورتها البيضاء وحسب:

- هيا ننام.

سارت بهدوء في منزل التاجر الذي يُخيِّم عليه هدوء الموت، وسيرجي من خلفها يحمل السجادة وبلوزتها التي خلعتها وسط نوبة مرحها ونشوتها.

* * *

الفصل السابع

ما إن أطفأت كاترينا لفوفنا الشمعة حتى خلعت ثيابها تمامًا، واستلقت على الفراش الناعم، وغرقت في النوم. نامت كاترينا لفوفنا بعد نوبة مرح ولهو قوية إلى حد أن تخدرت قدمها ويدها، لكنها سمعت في أثناء نومها مجددًا صوتًا كأن الباب قد انفتح ثانية، وقفز القط الضخم برشاقة على الفراش. قالت كاترينا لفوفنا في نفسها، شاعرة بالإنهاك: «إنها عقوبة أن يكون لدى المرء قط كهذا دائمًا. لقد أوصدت هذا الباب بيدَي عمدًا، والنافذة مغلقة، وبالرغم من كل ذلك أجده هنا مجددًا؟! سوف ألقيه الآن». واستعدت للنهوض، لكن يديها وقدميها الذين سرى فيهم الخدر لم يساعدوها، والقط ينتقل إلى هنا وهناك، ويموء بصورة غريبة بدت مجددًا كأنها كلمات إنسانية. سرى الخدر في جسد كاترينا لفوفنا بأكمله. قالت في نفسها: «لا، ليس في يدي شيء آخر يمكنني أن أفعله. سوف أجلب ماءً مقدسًا من الكنيسة وأنثر منه على الفراش، لأن هذا أمكر قط شاهدته».

سمعت مجددًا مواء القط، وخرخرته، ومد رأسه وقال لها: «يا لي من قط! لماذا أنا قط؟ أنتِ ذكية جدًّا يا كاترينا لفوفنا لتدركي أنني لست

قطًّا على الإطلاق، بل أنا التاجر البارز بوريس تيموفيتش. لقد ساءت حالتي تمامًا حتى إن كل أمعائي الداخلية قد تمزقت بسبب ما قدمته لي زوجة ابني. لهذا أموء. تحولت إلى قط صغير، وأظهر على هذه الهيئة لمن يفكرون قليلًا في حقيقتي. لكن كيف هي أحوالكِ يا كاترينا لفوفنا؟ وكيف تحافظين على عهدكِ الزوجي؟ لقد جئت من المقابر خصوصًا لأرى كيف تُدفِّئين فراش زوجكِ بصحبة سيرجي فيليبيتش. أنا لا أرى شيئًا في هذا الظلام. لا تخشيني، كما ترين، لقد جعل علاجكِ عينَي تجحظان. انظري إلى عينَي يا صديقتي ولا تخافي».

نظرت كاترينا لفوفنا إليه، وصرخت. وجدت القط بينها وبين سيرجي، لكن رأسه هو رأس بوريس تيموفيتش بحجمه الطبيعي كما كان لدى الراحل، وبدلًا من العينين ثمة حلقتان ناريتان تدوران باستمرار في اتجاهين مختلفين.

استيقظ سيرجي، وهدَّأ كاترينا لفوفنا، ونام مجددًا، لكن النوم فارقها تمامًا لحسن الحظ.

استلقت بعينين مفتوحتين، وسمعت فجأة صوتًا كما لو أن أحدهم قد تسلق بوابة المنزل ودخل. بدأت الكلاب تنبح لكنها توقفت سريعًا. لا بد أن من دخل بدأ يداعبها فصمتت. مرت دقيقة أخرى وسمعت صوت القفل الحديدي يدور، والباب ينفتح. قالت في نفسها: «إما أني أحلم أو أن زينوفي بوريسيتش قد عاد، لأن الباب قد انفتح بمفتاحه الاحتياطي». فكرت في ذلك وهزت سيرجي سريعًا، وقد استندت إلى مرفقها وأنصتت:

- اسمع يا سيريوجا.

ثمة أصوات أقدام تصعد درجات السلم بهدوء وحذر. أحدهم يقترب فعلًا من باب غرفة النوم المغلق.

هبَّت كاترينا لفوفنا من على فراشها وهي لا ترتدي شيئًا سوى قميصها الداخلي، وفتحت النافذة. في اللحظة ذاتها قفز سيرجي حافي القدمين إلى العمود، وقد لف قدميه حوله ليهبط عليه، كما هبط كثيرًا من غرفة نوم سيدته.

همست كاترينا لفوفنا:

- لا، لا تفعل ذلك. لا تفعل ذلك. اختبئ هنا، ولا تبتعد.

وألقت له من النافذة حذاءه وثيابه، واندفعت مجددًا إلى الفراش وتدثرت وانتظرت.

أطاع سيرجي كاترينا لفوفنا؛ لم ينزلق إلى أسفل على العمود بل اختبأ تحت أحد الرفوف الخشبية في الممر.

في هذه الأثناء سمعت كاترينا لفوفنا كيف اقترب زوجها من الباب؛ أمسكت أنفاسها وأنصتت، حتى إنها سمعت كيف تسارعت دقات قلبه الذي اكتنفته الغيرة، لكنها لم تشعر بالأسف عليه، بل ارتسمت على وجهها ضحكة شريرة. قالت في نفسها، مبتسمة، وقد بدت أنفاسها كأنفاس طفل صغير: «قُضي الأمر».

استمر الأمر طوال عشر دقائق حتى مل أخيرًا زينوفي بوريسيتش

من الوقوف خلف الباب والإنصات إلى نوم زوجته. طرق الباب أخيرًا. أجابت ولكن ليس بسرعة، وجعلت صوتها يبدو نعسًا:

- من هناك؟

أجاب زينوفي بوريسيتش:

- صديق.

- أهذا أنت يا زينوفي بوريسيتش؟

- بالطبع أنا، وكأنكِ لم تتعرفي على صوتي!

هبَّت كاترينا لفوفنا من على فراشها بقميصها الداخلي وحسب كما كانت، وفتحت لزوجها الباب، وعادت إلى فراشها الدافئ سريعًا. قالت وهي تتدثر:

- قبل الفجر تكون البرودة شديدة.

دخل زينوفي بوريسيتش، وتلفت حوله، وتلا صلاة، وأشعل شمعة، وتلفت حوله مجددًا. سأل زوجته:

- كيف أحوالكِ؟

أجابته كاترينا لفوفنا، وهي تنهض من على الفراش وترتدي بلوزة قطنية واسعة:

- لا بأس. هل أُجهِّز لك السماور؟

- لا تشغلي بالكِ. نادي على أكسينيا وهي تُعده.

ارتدت كاترينا لفوفنا الحذاء على قدميها العاريتين، وخرجت لتنادي أكسينيا. لم تعد إلا بعد مرور نصف ساعة. في هذه الأثناء أعدت

السماور بنفسها، وأشارت لسيرجي بهدوء في الممر. همست له:

- اجلس هنا.

أجابها همسًا هو الآخر:

- حتى متى؟

- كم أنت غبي! اجلس هنا حتى أقول لك.

وخبَّأته كاترينا لفوفنا بنفسها في المكان ذاته.

كان بمقدور سيرجي أن يسمع من هذا الموضع كل ما يحدث في غرفة النوم. سمع مجددًا كيف صر قفل الباب ودخلت كاترينا لفوفنا مجددًا إلى زوجها؛ سمع كل شيء تفصيلًا.

سأل زينوفي بوريسيتش زوجته:

- ما الذي أخَّركِ إلى هذا الحد؟

أجابته بهدوء:

- أعددت السماور.

ساد الصمت لبرهة. كان بوسع سيرجي أن يسمع كيف يُعلِّق زينوفي بوريسيتش سترته على الشماعة، وها هو يغتسل، ويشخر وينثر المياه في الاتجاهات كافة. طلب منشفة، وعاودا الحديث مجددًا. سأل الزوج:

- كيف دفنتم والدي؟

- هكذا... مات ودفناه.

- كم هو أمر غريب!

أجابت كاترينا لفوفنا وقرعت الفناجين:

- الله وحده يعلم.

ذرع زينوفي بوريسيتش الغرفة حزينًا. سأل زوجته مجددًا:

- وماذا عنكِ؟ كيف قضيتِ هذه المدة؟

- مسراتي معروفة للجميع؛ فأنا لا أذهب إلى حفلات الرقص ولا إلى المسارح.

نظر إليها بطرف عينه قائلًا:

- يبدو أنكِ غير سعيدة كفاية لرؤية زوجكِ.

- لست فتاة صغيرة رعناء حتى أجن عندما ألتقيك. كيف يجب أن أظهر بهجتي؟ ها أنا أسرع لفعل كل شيء يرضيك.

هرعت كاترينا لفوفنا مجددًا لتجلب السماور، ومرت بسيرجي ولكزته قائلة:

- لا تتثاءب يا سيرجي.

لم يفهم سيرجي إلام سيؤدي كل ذلك لكنه تأهب.

عادت كاترينا لفوفنا، ووجدت زينوفي بوريسيتش جالسًا على ركبتيه على الفراش، وعلى الحائط من فوقه ساعته الفضية معلقة بسلسلة مزخرفة. سألها بمكر بعض الشيء فجأة:

- لماذا أعددتِ الفراش لشخصين يا كاترينا لفوفنا[1] بينما أنتِ بمفردكِ؟

---

(١) فلنلاحظ أن الزوج والزوجة يخاطبان بعضهما خطابًا رسميًا: يتحدثان في الأصل الروسي بصيغة الجمع التي تُستخدم في الحديث الرسمي، ويناديان على بعضهما بالاسم الكامل ولا يستخدمان أي تدليل.

نظرت إليه كاترينا لفوفنا بهدوء وأجابته:

- كنت في انتظارك طوال الوقت.

- أشكركِ بكل تواضع. من أين أتى هذا الشيء على الفراش الريشي؟

التقط زينوفي بوريسيتش حزام سيرجي الصوفي الصغير من على الفراش، وأمسكه من طرفه أمام عينَي زوجته.

أجابته كاترينا لفوفنا من دون تفكير:

- من الحديقة. وجدت تنورتي مربوطة به في الحديقة.

- نعم! (شدَّد زينوفيبوريسيتش على الكلمة) لقد سمعت فعلًا شيئًا عن تنورتكِ.

- ماذا سمعت؟

- سمعت عن كل الأمور الجيدة التي فعلتِها.

- لم أفعل أي أمور جيدة.

- سنكتشف ذلك. سنكتشف كل شيء.

قال زينوفي بوريسيتش ذلك، وهو يعطي زوجته فنجان شايه الفارغ. لزمت كاترينا لفوفنا الصمت. عاود الزوج حديثه بعد فترة صمت طويلة عابسًا في وجه زوجته:

- سوف أستعلم عن كل هذه الأمور يا كاترينا لفوفنا.

- لا يمكنك أن تخيف كاترينا لفوفنا بسهولة. إنها لا تخشى شيئًا.

- ماذا؟ ماذا؟

ارتفع صوت زينوفي بوريسيتش، وأجابته زوجته:

- لا شيء. لقد انتهى الأمر.

- حسنًا، ولكن احذري، لقد صرتِ ثرثارة.

- ولماذا لا أصير كذلك؟

- يجدر بكِ أن تتحلي بمزيد من الحذر.

- ليس لديَّ ما أحذر منه، ولا يهمني ما قالته لك الألسنة الطويلة عني، وهل يجب أن أبالي بكل الإهانات التي تلحق بي؟ هذا أمر جديد فعلًا!

- ليست ألسنة طويلة، لكنهم يعرفون الحقيقة عن عشاقكِ.

صاحت غاضبة فعلًا:

- أي عشاق؟

- أنا أعرف جيدًا.

- ما دمت تعرف تكلم بوضوح إذن!

صمت زينوفي بوريسيتش، وسلَّم فنجان شايه الفارغ لزوجته مجددًا. قالت كاترينا لفوفنا بازدراء، وهي تلقي بإهمال ملعقة الشاي على طبق الفنجان:

- من الواضح أنه ليس لديك شيء لتقوله عن الأمر. ألا يمكنك أن تقول من هو المتهم؟ من هو ذلك العشيق الذي تتحدث عنه؟

- ستعرفين. لا داعي للعجلة.

- أكان حديثهم عن سيرجي؟

- سنعرف كل شيء. سنعرف كل شيء يا كاترينا لفوفنا. لا أحد قد نزع سلطاني عليكِ، ولا أحد يمكنه أن يفعل ذلك. سوف تقولين لي بنفسكِ كل شيء.

- آه! لم أعد قادرة على تحمل ذلك.

قالت كاترينا لفوفنا ذلك، وصرَّت بأسنانها، وشحب وجهها وصار كقطعة قماش بيضاء، وخرجت فجأة من الباب. قالت بعد بضع ثوانٍ، وقد دخلت الغرفة مجددًا، وجرَّت معها سيرجي إلى الداخل:

- حسنًا، ها هو. استجوبه واستجوبني بخصوص ما تعرفه. ربما تعرف بهذه الطريقة أكثر مما تعرفه حقًّا.

ارتبك زينوفي بوريسيتش بشدة. تارة ينظر إلى سيرجي الواقف أمامه بالقرب من الباب، وتارة إلى زوجته التي جلست بهدوء على طرف الفراش وأسندت يديها عليه، ولم يفهم إلام يؤدي كل ذلك.

أخيرًا استجمع شتات نفسه وقال من دون أن ينهض من على المقعد:

- ماذا تفعلين أيتها الأفعى[1]؟

أجابته كاترينا لفوفنا بوقاحة:

(١) هنا بدأ الحوار بين الزوجين يدور بصيغة المفرد.

- استجوبنا عما تقول إنك تعرفه جيدًا. (واصلت حديثها وعيناها تطرفان بصورة واضحة) لقد خطَّطت لأن تخيفني بشدة، ولكن هذا لن يحدث أبدًا. لكني عرفت ماذا سأفعل بك، ربما حتى قبل أن تطلق تهديداتك.

- ماذا تقولين؟ (ثم صاح زينوفي بوريسيتش في سيرجي) إلى الخارج.

- حقًّا؟!

قالتها كاترينا لفوفنا ساخرة. أغلقت الباب، وأوصدته بالمفتاح، وعادت إلى جلستها على الفراش، وقالت لخادمها:

- حسنًا يا سيريوجكا، انتظر هنا يا عزيزي.

سوَّى سيرجي خصلات شعره، وجلس بجرأة بالقرب من سيدته.

صاح زينوفي بوريسيتش وقد احمر وجهه بشدة، وهب من على كرسيه:

- يا إلهي! ماذا تفعلان؟ ماذا تفعلان أيها الهمجيان؟!

- ماذا؟ ألا يروقك ذلك؟ انظر، انظر إلى صقري ذي العينين البراقتين، كم هو رائع!

ضحكت كاترينا لفوفنا، وقبَّلت سيرجي بحرارة أمام زوجها.

في هذه اللحظة استقبلت صفعة رهيبة على خدها، وتمايل زينوفي بوريسيتش صوب النافذة المفتوحة.

* * *

الفصل الثامن

صاحت كاترينا لفوفنا:

- حسنًا، جيد هذا يا صديقي العزيز. كنت في انتظار أن تفعل ذلك. من الواضح الآن أن الأمر سيتم على طريقتي لا على طريقتك.

أبعدت سيرجي عنها بحركة سريعة مفاجئة، وألقت بنفسها على زوجها، وقبل أن يستطيع زينوفي بوريسيتش الوصول إلى النافذة ضغطت على عنقه بأصابعها الصغيرة، وأوقعته أرضًا كحزمة قنب جافة.

ارتطم رأس زينوفي بوريسيتش بالأرض بقوة حتى كاد أن يفقد وعيه. لقد أثبت له العنف الأول الذي واجهه من قِبل زوجته أنها قد أعدت كل شيء من أجل التخلص منه، وأنه الآن يتعرض لخطورة شديدة. فكَّر زينوفي بوريسيتش في كل ذلك في لحظة سقوطه على الأرض، ولم يصرخ، عالمًا أن صوته لن يصل إلى أذن أحد، بل سيُسرِّع من الأمر وحسب. نظر حوله في صمت، وتوقفت نظراته عليها وقد ارتسم فيها تعبير مزيج من الضغينة واللوم والمعاناة، وهي تضغط بأصابعها الصغيرة على عنقه بقوة.

لم يدافع زينوفي بوريسيتش عن نفسه، واستلقت يداه بقبضتيها المضمومتين إلى جانبه مرتعشتين ومتشنجتين، وكانت إحداهما حرة تمامًا، والأخرى ضغطتها كاترينا لفوفنا على الأرض بركبتها.

همس سيرجي بلا مبالاة وهو يدور حول الزوج:

- أمسكي به جيدًا.

جلس سيرجي على سيده، وأمسك ركبتيه بكلتا يديه، وأراد أن يضع يديه على عنق الزوج تحت يد كاترينا لفوفنا، ولكن في اللحظة ذاتها صاح الزوج صيحة يائسة. رؤيته لرغبة سيرجي في الانتقام الدموي جعلته يستجمع في داخله آخر ما تبقى من قواه، فاندفع بقوة وانتزع يديه من تحت ركبتي سيرجي، وأمسك بهما خصلات شعر سيرجي السوداء، وبدا أنه سينقض بأسنانه على عنقه كالوحش، لكن هذا لم يستمر طويلًا، فسرعان ما تأوه زينوفي بوريسيتش بقوة، وأمال رأسه.

وقفت كاترينا لفوفنا شاحبة الوجه، وعلى الأرض أمامها زوجها وعشيقها، تكاد لا تستطيع التقاط أنفاسها تقريبًا، وفي يدها اليمنى شمعدان معدني ثقيل أمسكته من طرفه الأعلى، وطرفه السفلي إلى أسفل. سال خيط رفيع من الدماء على صدغ ووجنة زينوفي بوريسيتش.

تحشرج زينوفي بوريسيتش مزيحًا رأسه باشمئزاز قدر الإمكان بعيدًا عن سيرجي الجالس بجانبه:

- الكاهن. الاعتراف.[1]

قال ذلك بصوت غير مسموع تقريبًا، مرتعشًا، ناظرًا إلى الدماء الدافئة التي تسيل من رأسه.

همست كاترينا لفوفنا:

- سوف تتدبر أمرك جيدًا من دون كاهن.

وقالت لسيرجي:

- كفاك عبثًا معه. اخنقه جيدًا.

تحشرج زينوفي بوريسيتش.

انحنت كاترينا لفوفنا، وضغطت بيديها على يدي سيرجي القابضتين على عنق زوجها، ثم وضعت أذنها على صدر زوجها. بعد خمس دقائق من الصمت نهضت وقالت:

- كفى. لقد انتهى أمره.

نهض سيرجي هو أيضًا وأخذ نفسًا عميقًا. استلقى جثمان زينوفي بوريسيتش، وقد اختنق حتى الموت، وشُقَّ صدغه. كانت هناك بقعة دماء صغيرة على الناحية اليسرى، تحت رأسه، إلا أن الدماء لم تعد تسيل من جرح الرأس الذي غطاه الشعر.

نقل سيرجي زينوفي بوريسيتش إلى القبو تحت الأرض في حجرة المؤن الحجرية حيث حبسه هناك منذ فترة قصيرة بوريس تيموفيتش،

---

(١) جرت العادة عندما يشعر المرء باقتراب الموت أن يستدعوا له الكاهن ليصلي له ويتقبل اعترافه الأخير.

ثم عاد إلى العلية. في أثناء ذلك شمَّرت كاترينا لفوفنا أكمام قميصها الداخلي، وغسلت بعناية بقعة الدم التي تركها زينوفي بوريسيتش على أرضية الحجرة بماء وقماشة. لم يكن الماء قد برد بعد في السماور الذي شرب منه سيد البيت زينوفي بوريسيتش شايًا مسمومًا، وأزيلت بقعة الدماء تمامًا من دون أن تترك أثرًا.

تناولت كاترينا لفوفنا إناء الغسل النحاسي[1] وقماشة التنظيف المليئة بالصابون. قالت لسيرجي، ذاهبة صوب الباب:

- أنِر لي هنا. لا، أريد ضوءًا خافتًا أضعف من ذلك.

حدَّثته بحذر، وهي تفحص كل مواضع الأرضية التي جر سيرجي عليها زينوفي بوريسيتش حتى القبو. لم تلحظ بقع دماء إلا في موضعين وحسب على الأرض بحجم حبتي كرز. نظفت كاترينا لفوفنا الموضعين بالقماشة جيدًا حتى تلاشيا تمامًا. قالت وهي تُعدِّل من وضعها وتنظر صوب القبو:

- عسى أن تتعلم ألا تأتي متسللًا إلى زوجتك وتكمن لها كاللص.

قال سيرجي، وقد ارتجف من سماع صوته:

- انتهى الأمر!

عندما عادا معًا إلى غرفة النوم، شق خط الفجر الرقيق صفحة السماء من ناحية الشرق ليكسو زهور أشجار التفاح بلون ذهبي، ويطل

---

(١) أحد مكونات مجموعة الشاي التقليدية. كان يُستخدم لتفريغ الشاي البارد قبل إعادة الملء بالشاي الساخن، حيث كانت هناك في كثير من الأحيان أوراق الشاي في قاع الكؤوس.

من خلال الأعواد الخضراء التي تسيج الحديقة على غرفة كاترينا لفوفنا.

سار الموظف العجوز في فناء المنزل، وقد ارتدى معطفه القصير المصنوع من جلد الغنم، ورشم علامة الصليب متثائبًا، متوجهًا من السقيفة إلى المطبخ.

أغلقت كاترينا لفوفنا بحذر مصراعي النافذة، ونظرت إلى سيرجي بانتباه، كما لو أنها تريد قراءة ما يعتمل في نفسه. قالت له وقد وضعت يديها البيضاوين على كتفيه:

- ها قد صرت تاجرًا.

ارتجفت شفتا سيرجي، وضربته الحمى، بينما اقتصر الأمر لدى كاترينا لفوفنا على أن بردت شفتاها.

بمرور يومين ظهرت بثرات كبيرة في يدي سيرجي بسبب استخدام العتلة والمجرفة الكبيرة، ومن ثم دُفِن زينوفي بوريسيتش جيدًا في القبو، وتوارى الجثمان تمامًا بدرجة تجعل من المستحيل على أحد أن يجده حتى يوم الدينونة الأخير من دون مساعدة أرملته أو عشيقها.

* * *

الفصل التاسع

سار سيرجي وقد ربط حول عنقه وشاحًا قرمزيًّا، واشتكى من ألم ما في حلقه. في هذه الأثناء، وقبل أن تلتئم العلامات التي تركتها أسنان زينوفي بوريسيتش على عنقه، بدأ الناس يتساءلون عن زوج كاترينا. في كثير من الأحيان كان سيرجي نفسه هو من يبدأ التحدث عنه. يجلس في المساء مع رفاقه على إحدى الدكك بالقرب من البوابة، ويقول: «من الغريب يا رفاق أن السيد لم يعد حتى الآن». ويُبدي الرفاق تعجبهم أيضًا.

ثم يأتي خبر من المطحنة أن السيد قد استأجر جيادًا، وسلك طريقه عائدًا إلى المنزل منذ فترة طويلة. قال الحوذي الذي قاد مركبته إن زينوفي بوريسيتش بدا مضطربًا، وصرفه بطريقة غريبة قبل أن يصلوا إلى المدينة بقرابة ثلاثة فرستات، وترك المركبة بالقرب من الدير، وتناول حقيبته وسار وحده. عندما سمع الناس هذه القصة ازداد تعجبهم.

اختفى زينوفي بوريسيتش! هذا ما حدث وحسب!

بحثوا عنه ولم يجدوه. تلاشى تمامًا. لم يعرفوا من الحوذي الذي قبضوا عليه سوى أن التاجر قد فارق العربة وسار وحده عند النهر،

قرابة الدير. لم ينجلِ الأمر، وفي هذه الأثناء استطاعت كاترينا لفوفنا أن تحيا بمزيد من الحرية في هذا الوضع كأرملة. تناثرت الإشاعات عن أن زينوفي بوريسيتش قد ظهر هنا، وظهر هناك، لكنه لم يَعُد، وعرفت كاترينا لفوفنا أفضل من أي شخص آخر أنه لن يعود أبدًا.

انقضى شهر على هذه الحال، ومر شهر ثانٍ، فثالث، وشعرت كاترينا لفوفنا بأنها حامل. قالت لسيرجي:

- سوف يؤول المال لنا يا سيريوجكا. لديَّ وريث.

مضت إلى مجلس المدينة لتُعلِمهم أنها تشعر بأنها حامل وتشكو من أن العمل قد توقف حتى يسمحوا لها بمواصلة شؤون العمل.

قالوا فيما بينهم: «لا يجب أن يتم القضاء على عمل تجاري مزدهر. كاترينا لفوفنا هي الزوجة الشرعية، ولا يبدو أن هناك أي ديون، ومن ثم يجب أن نسمح لها بمواصلة أعمال زوجها». وتركوها تباشر العمل.

تعيش كاترينا لفوفنا وسيرجي معها، وتسود على الأملاك، وقد صارت تدعوه «سيرجي فيليبيتش[1]»، وفجأة تحدث مشكلة ضخمة لم يكن أحد في انتظارها. وصل خطاب من مدينة ليفين إلى عمدة المدينة مفاده أن تجارة بوريس تيموفيتش لم تجرِ كلها برأسماله وحده، وأن أكثر أمواله هي في الحقيقة ملك لابن شقيقه فيودور زاخاروف لياميين، وأن الأملاك يجب أن تؤول إلى يد فيودور زاخاروف لياميين، لا إلى يد كاترينا لفوفنا. وصل هذا الخبر، وتحدث العمدة عنه مع كاترينا لفوفنا،

---

(١) دلالة الاحترام.

وهكذا حدث فجأة في غضون أسبوع أن أتت عجوز من مدينة ليفين ومعها صبي صغير. قالت:

- أنا شقيقة المرحوم بوريس تيموفيتش، وهذا ابن أخي فيودور لياميين.

استقبلتهما كاترينا لفوفنا.

أما سيرجي، وقد راقب وصولهما واستقبالهما، فقد شحب كاللوح. سألته صاحبة المنزل عندما لاحظت شحوبه المميت، بعد أن دخل المنزل خلف الزائرين، ونظر إليهما، وتوقف في الردهة الأمامية:

- ماذا بك؟

- لا شيء.

هكذا أجاب الموظف، ومضى من الردهة الخارجية إلى الدهليز الداخلي. تنهد وقال بعد أن أغلق الباب من خلفه:

- يا لها من مفاجأة بوصول هؤلاء القوم من ليفين!

سأل سيرجي فيليبيتش كاترينا لفوفنا، وقد جلسا معًا بالقرب من السماور:

- حسنًا، ماذا علينا أن نفعل الآن؟ كل ما فعلناه يا كاترينا لفوفنا يضيع هباء.

- لماذا تقول إنه قد ضاع هباء؟

- لأن كل شيء سيُقسَّم. ما الفائدة التي ستعود علينا من إدارة عمل تافه القيمة؟

- أهو أمر تافه أن تعيش معي يا سيريوجا؟

- أنا لا أفكر في نفسي، لكن الشك يراودني في أننا سنكون سعيدين.

- كيف تقول ذلك؟ لماذا لن نكون سعيدين؟

- لأنني أحبكِ حبًّا قويًّا يا كاترينا لفوفنا، ولذلك أريد أن أراكِ تعيشين حياة سيدة حقيقية، وليست الحياة التي عشتِها سابقًا. الآن يحدث العكس؛ فمع قلة المال سيتوجب علينا أن نحيا في مستوى أقل حتى مما عشنا فيه قبل ذلك.

- وما حاجتي إلى المال يا سيريوجا؟

- ربما أنتِ لا تبالين حقًّا يا كاترينا لفوفنا بالمال، لكن بالنسبة لي؛ أنا الذي أكن احترامًا كبيرًا لكِ، وأمام أعين الأوغاد والحُسَّاد، سيكون الأمر مؤلمًا بدرجة رهيبة. يمكنكِ بالطبع أن تفعلي ما تريدينه، لكن من وجهة نظري الشخصية لن أصير سعيدًا أبدًا في ظل هذه الظروف.

ظل سيرجي يلاعب كاترينا لفوفنا طويلًا بهذه النبرة، قائلًا إنه في وجود فيديا ليامين هذا سيصير أتعس إنسان على وجه البسيطة، محرومًا من إمكانية تبجيل وتمجيد كاترينا لفوفنا أمام التجار جميعًا. أدى هذا بسيرجي إلى أن يصل في كل مرة إلى الاستنتاج ذاته؛ ألا وهو أنه لو لم يوجد هذا المدعو فيديا، وولدت كاترينا لفوفنا طفلها قبل إتمام تسعة أشهر من اختفاء زوجها، لآل إليها المال كله، ولما كانت هناك حدود لسعادتهما.

الفصل العاشر

بعد ذلك توقف سيرجي فجأة عن التحدث عن الإرث. ما إن توقف عن حديثه هذا حتى وجدت كاترينا لفوفنا أنها لا تستطيع التوقف عن التفكير في فيديا لياميـن. كانت تفكر فيه، حتى في أثناء مداعباتها لسيرجي. سواء نامت أو انشغلت في إدارة أعمالها أو صلَّت لله، ثمة فكرة واحدة تظل في ذهنها: «لماذا سارت الأمور بهذا الشكل؟ لماذا يتوجب عليَّ أن أُحرم من المال بسببه؟ كم عانيت حتى إني قبلت أن أحمل عبء هذه الخطية على كاهلي!». هكذا تفكر كاترينا لفوفنا. «ويأتي وينتزع مالي بهذه البساطة! آه لو كان رجلًا بالغًا وليس طفلًا!».

بدأت بوادر الصقيع. بالطبع لم تصل أي أخبار عن زينوفي بوريسيتش من أي مكان. ازدادت كاترينا لفوفنا وزنًا، وصارت تستغرق طوال الوقت في التفكير. أطلقوا عليها شائعات كثيرة في المدينة، وتساءلوا لماذا بدأت الشابة إسماعيلوفا تسمن فجأة، وهي التي كانت طوال الوقت نحيلة. أما الوريث الطفل فيديا لياميـن، فكان يتمشى حول المنزل بمعطفه الخفيف المصنوع من جلد السناجب، ويلهو بكسر طبقات الثلج الرقيقة التي تغطي البرك الصغيرة.

تصيح فيه الطاهية أكسينيا هارعة إلى الساحة:

- يا فيودور[1] إيجناتيتش، أيليق بك يا سليل طبقة التجار أن تلهو بالثلج؟!

لكن الوريث الذي كاد أن يُصيب كاترينا لفوفنا بالجنون، والذي صار هدف كل تفكيرها، أخذ يلهو كعنزة وديعة، ونام بقدر أكبر من الوداعة بالقرب من عمته من دون أن يدرك إطلاقًا أنه قد قطع طريق شخص آخر أو قضى على سعادته.

في نهاية الأمر أصيب بالجدري، وزاد على ذلك أيضًا أن شعر بآلام في الصدر من جراء إصابته بالبرد، واستلقى الصبي مريضًا. عالجوه في البداية بالأعشاب والنباتات الطبية، لكنهم اضطروا بعد ذلك إلى الإرسال في طلب طبيب.

جاء الطبيب، ووصف بعض الأدوية وتناولها الصبي في مواقيتها المحددة؛ تارة من يد عمته نفسها، وتارة من يد كاترينا لفوفنا. تقول العمة لها:

- أرجوكِ يا كاترينوشكا[2]، أنتِ أيضًا ستصيرين أمًّا وتنتظرين إرادة الله، أرجوكِ ساعديه.

لا ترفض كاترينا لفوفنا طلب العجوز؛ فإما تذهب للصلاة طوال الليل من أجل: «الصبي الصغير فيديا الراقد على فراش المرض»، أو

(١) فيديا وفيديوشكا تدليل فيودور.

(٢) تدليل كاترينا.

تجعل الكاهن يأتي من الكنيسة ويناوله الخبز والخمر المقدسين، وتظل ترعاه وتسقيه وتعطيه الأدوية المطلوبة في مواقيتها.

هكذا ذهبت العجوز إلى صلاة عشية عيد تقدم السيدة العذراء إلى الهيكل[1]، وطلبت من كاترينوشكا أن ترعى فيديوشكا. في هذه الفترة كان الصبي قد بدأ يتعافى.

ذهبت كاترينا لفوفنا إلى فيديا، ووجدته جالسًا على الفراش بمعطفه القصير، مستغرقًا في قراءة كتاب. جلست كاترينا لفوفنا على المقعد وسألته:

- ماذا تقرأ يا فيديا؟

- سير القديسين يا خالة.

- أهي شيقة؟

- شيقة جدًّا يا خالة.

اتكأت كاترينا لفوفنا على ذراعها وحدَّقت في شفتَي فيديا المتحركتين، وفجأة بدا الأمر كما لو أن شياطينها قد أُطلِقت من قيودها، وعاودتها أفكارها السابقة عن مقدار الشر الذي جلبه إليها هذا الصبي، وكم كان من الأفضل لو لم يوجد قَطُّ. قالت كاترينا لفوفنا في نفسها: «ماذا إذن؟ الفتى مريض، ويعطونه أدوية. كل شيء يمكن أن يحدث في

(١) عيد طقسي تحتفل به بعض الكنائس في ٢١ نوفمبر. يرتبط العيد بحدث لم يرد ذكره في العهد الجديد؛ ألا وهو تقدم العذراء للخدمة في الهيكل وبقاؤها فيه لمدة من الزمن.

أثناء المرض. يمكنني حينها أن أقول إن الطبيب أخطأ في تحديد الدواء المناسب».

- هيا يا فيديا لقد حان موعد تناول الدواء.

أجابها الصبي وقد أخذ رشفة من الملعقة:

- حسنًا يا خالة. كتاب شيق جدًّا يتحدث عن سير القديسين.

قالت له كاترينا لفوفنا:

- فلتقرأ إذن.

وأخذت تنظر ببرود في أنحاء الغرفة كافة، وتوقفت نظرتها على النوافذ المغطاة بالثلوج.

- يجب أن نغلق النوافذ.

قالت ذلك وخرجت متوجهة إلى قاعة الاستقبال، ومن هناك إلى الردهة، ومن هناك إلى عليتها، ومكثت هناك.

بمرور خمس دقائق جاءها سيرجي صامتًا وقد ارتدى معطفًا قصيرًا من نوع «رومانوف». سألته كاترينا لفوفنا:

- هل أغلقتم النوافذ؟

أجابها سيرجي بجفاف:

- أغلقوها.

وأطفأ الشموع، ووقف عند الموقد. ساد الصمت.

سألت كاترينا لفوفنا:

- ألن ينهوا الصلاة سريعًا في الكنيسة اليوم؟

- غدًا عيد مهم، ومن ثم سيُصلون طويلًا.

بعد إجابة سيرجي خيم الصمت لبرهة مجددًا، ثم قالت وهي تنهض من مكانها:

- سأذهب إلى فيديا. إنه وحده.

سألها بنظرة متجهمة:

- وحده؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

أجابته هامسة:

- نعم، وحده يا سيرجي.

ولمعت عيناها كما لو أنهما شكَّلتا شبكة من البرق، لكن أحدًا منهما لم يضف شيئًا آخر.

هبطت كاترينا لفوفنا درجات السلم، وذرعت الغرف الفارغة، وإذا بالهدوء يسودها، والمصابيح تتقد بهدوء أمام الأيقونات الدينية، وتنعكس ظلالها على الحوائط، وقد أدى إغلاق النوافذ إلى أن تصير دافئة وتسيل قطع الثلج. كان فيديا جالسًا في الغرفة منهمكًا في القراءة. ما إن رأى كاترينا لفوفنا حتى قال:

- يا خالة، خذي هذا الكتاب من فضلكِ، وأعطيني الكتاب الآخر الموجود على رف الأيقونات.

نفَّذت كاترينا لفوفنا طلب قريبها، وأعطته الكتاب.

- ألن تنام يا فيديا؟

- لا يا خالة. سوف أنتظر عمتي.

- ولماذا تنتظرها؟

- لقد وعدتني بأن تأتيني بقربان مقدس من صلاة عشية.

احمر وجه كاترينا لفوفنا فجأة، فقد تحرك طفلها في أحشائها لأول مرة تحت قلبها، واكتنفت برودة صدرها. وقفت لبرهة في منتصف الغرفة، ثم خرجت منها وهي تفرك يديها الباردتين. همست: «حسنًا». ودخلت بهدوء غرفة نومها لتجد سيرجي مجددًا في المكان ذاته عند الموقد. سألته بصوت مخنوق يكاد لا يُسمع:

- ماذا بك؟

- هو وحده.

حرَّك سيرجي حاجبه، وتنفس بعمق. قالت كاترينا لفوفنا وقد استدارت فجأة صوب الباب:

- لنذهب.

خلع سيرجي حذاءه طويل العنق سريعًا وسألها:

- ماذا يجب أن نأخذ معنا؟

أجابته كاترينا لفوفنا سريعًا:

- لا شيء.

وقادته من يده بهدوء.

الفصل الحادي عشر

ارتجف الصبي المريض، وترك الكتاب على ركبتيه، وحينها جاءته كاترينا لفوفنا للمرة الثالثة.

- ماذا بك يا فيديا؟

أجاب بقلق، مبتسمًا، وقد انزوى في زاوية الفراش:

- آه يا خالة! شيء ما أخافني.

- ما الذي أخافك؟

- من أتى معكِ يا خالة؟

- أين؟ لا أحد أتى معي يا عزيزي.

- لا أحد؟

مدَّ الصبي جسده صوب أول الفراش، وضيَّق عينيه، ونظر صوب الباب الذي دخلت منه الخالة، وشعر بالقلق. قال:

- لا بد إذن أني تخيلته.

وقفت كاترينا لفوفنا متكئة على مقدمة فراش قريبها. نظر فيديا إلى الخالة ولاحظ أنها شاحبة تمامًا لسبب ما.

استجابة لهذه الملاحظة سعلت كاترينا لفوفنا عمدًا، ونظرت صوب باب الغرفة بترقب، لكن كل ما حدث هو أن طقطقت أحد ألواح الأرضية الخشبية.

- أقرأ الآن يا خالة سيرة ملاكي الحارس: القديس فيودور ستراتيلات. لقد خدم الله بإخلاص.

وقفت كاترينا لفوفنا صامتة. حاول الصبي ملاطفتها قائلًا:

- اجلسي يا خالة، ولو شئتِ يمكنني أن أقرأ لكِ.

- انتظر، سوف أصلح المصباح في الردهة وأعود إليك حالًا.

هكذا أجابته كاترينا لفوفنا، وخرجت بخطوات مسرعة.

كان بالإمكان سماع همسات من قاعة الاستقبال، ووصلت إلى أذني الطفل الحساستين وسط الهدوء السائد على المكان.

- يا خالة، ما هذا الصوت؟ مع من تتهامسين؟

صاح الطفل وقد بان من صوته أنه يبكي:

- تعالي هنا يا خالة، أنا خائف.

ناداها بصوت يشوبه بكاء أكثر قوة بعد دقيقة، وسمع صوت كاترينا لفوفنا تقول: «حسنًا». وظن أنها تقولها له. سألته كاترينا لفوفنا بصوت أجش بعد برهة، وقد دخلت الغرفة بخطوات جريئة وحاسمة، ووقفت عند فراشه بحيث تحجب الباب عن نظره بجسدها:

- ما الذي يخيفك؟ نم.

- لا أريد يا خالة.

- لا، عليك أن تطيعني. أقول لك نم حالًا.

- لماذا يا خالة؟ لا أريد النوم بتاتًا.

تحدثت كاترينا لفوفنا مجددًا بصوت مختلف ومتقلقل، وقد أمسكت بالصبي من إبطيه، وجعلته يستلقي في وضع النوم:

- لا، أقول لك نم الآن.

في هذه اللحظة صاح فيديا بغضب شديد، فقد شاهد سيرجي يدخل إلى الغرفة شاحبًا وحافيًا.

كتمت كاترينا لفوفنا بيدها فم الصبي المفتوح هلعًا، وصاحت:

- هيا أسرع. أمسكه بقوة حتى لا يقاوم.

أمسك سيرجي قدمي فيديا بيديه، وبحركة واحدة غطت كاترينا لفوفنا وجه الطفل الضحية بوسادة ناعمة كبيرة، وضغطت عليها بكل قوتها بصدرها القوي.

بمرور أربع دقائق ساد صمت مميت على الغرفة.

همست كاترينا لفوفنا:

- مات!

وما إن نهضت لترتب كل شيء مجددًا حتى ضجت حوائط المنزل الهادئ التي حجبت جرائم عديدة بضربات عالية جدًّا؛ اهتزت النوافذ

والأرضيات، وكذلك اهتزت المصابيح المعلقة بسلاسل أمام الأيقونات الدينية، وتأرجحت ظلالها على الحوائط بأشكال غريبة.

ارتعش جسد سيرجي كاملًا، وركض بأسرع صورة ممكنة.

تبعته كاترينا لفوفنا، والضوضاء تعلو من خلفهما. بدا الأمر كما لو أن قوى غير أرضية قد هزَّت أساسات هذا البيت الشرير.

خافت كاترينا لفوفنا أن يركض سيرجي من هلعه إلى ساحة المنزل، وألا يتمالك نفسه، لكنه توجه إلى العلية مباشرة.

في قلب الظلمة صعد سيرجي درجات السلم الدامس واصطدمت جبهته بالباب نصف المفتوح، وسقط أرضًا متأوهًا يكاد يفقد وعيه من فرط الخوف المتعلق بإيمانه بالخرافات. تمتم في أثناء سقوطه على درجات السلم، جارًّا معه كاترينا لفوفنا التي تعثرت فيه.

- زينوفي بوريسيتش! زينوفي بوريسيتش!

سألته:

- أين هو؟

- لقد طار من فوقنا على لوح حديدي. ها هو مجددًا. آاه! آاه!

صاح سيرجي:

- إنه يرعد! يرعد مجددًا!

اتضح حينها تمامًا أن أيادي كثيرة تقرع النوافذ كافة من الشارع، وأحدهم يحاول فتح الباب عنوة.

صاحت كاترينا لفوفنا: «انهض أيها الأحمق». وأسرعت صوب فيديا، ووضعت رأسه الميت في وضع النوم الطبيعي على الوسادة، وبيد حازمة فتحت الباب الذي يقرعه الناس.

بدا المنظر مخيفًا. نظرت كاترينا لفوفنا إلى المحتشدين الذين حاصروا الشرفة الخارجية، والصفوف المتراصة التي تخطت السياج المرتفع واحتشدت في فناء المنزل، وجميعها شخصيات لا تعرفها، كما سمعت ضجيجًا قادمًا من الواقفين في الشارع.

قبل أن تفهم كاترينا لفوفنا ماذا حدث بالضبط سحقتها الجموع المندفعة المحيطة بالشرفة الخارجية، وألقتها داخل المنزل.

* * *

الفصل الثاني عشر

حدث كل هذا الاضطراب على النحو التالي:

تجتمع عادة في عشية واحد من الأعياد الاثني عشر الكبيرة في الكنيسة أعداد ضخمة من الناس في جميع كنائس المقاطعة التي عاشت فيها كاترينا لفوفنا، ويحدث أحيانًا أن يكون عدد الناس ضخمًا جدًّا في هذه الكنيسة التي تحتفل خصوصًا بهذا العيد إلى حد ألا يتوفر حتى مكان لسقوط تفاحة. في مثل هذه الأوقات ترتل الجوقة المكونة من شباب متحدرين من طبقة التجار، ويقود الجوقة قائد خاص من محبي فن الإنشاد.

إن شعبنا متدين، يواظب على الذهاب إلى الكنيسة، وفي الآن ذاته يتمتع بالحس الفني بدرجة معقولة. العظمة الكنسية والإنشاد المتناغم يشكلان بالنسبة له واحدة من أسمى وأطهر المتع. تجد نصف المدينة يجتمع حيث ينشد المرتلون، خاصة عندما يكون المنشدون من شباب طبقة التجار. يجتمع الموظفون والشباب وعمال المصانع وأصحاب المصانع أنفسهم، وبصحبتهم زوجاتهم، في كنيسة واحدة، ويريد الكل أن يقف في الرواق أو أسفل النوافذ بالرغم من الحرارة الحارقة

أو البرودة اللاذعة، ليستمع إلى اللحن الجميل وصوت التينور العالي ينتقل بين أكثر النغمات تنوعًا.

في كنيسة الإيبراشية التي عاشت فيها أسرة إسماعيلوف، حدث في عشية العيد، تكريمًا لعيد دخول السيدة العذراء إلى الهيكل، في الوقت ذاته الذي وصفنا فيه الأحداث السابقة التي حدثت مع فيديا، أن اجتمع شباب المدينة كلها في هذه الكنيسة، وانصرف الحشد الضاج وتحدثوا عن مزايا أحد المنشدين بعينهم من طبقة تينور، كما تحدثوا عن الارتباك الذي أصاب إنشاد أحد المنشدين من طبقة الباص.

لكن لم ينشغل الجميع بمثل هذه القضايا الموسيقية، بل انشغل البعض وسط هذا الحشد بمسائل أخرى تمامًا. قال ميكانيكي شاب جلبه أحد التجار من بطرسبرج إلى مطحنته البخارية:

- أمر غريب حقًّا يا رفاق ما يقولونه عن الشابة إسماعيلوفا. يُقال إنها تمارس الحب بلا توقف مع الموظف العامل لديهم المدعو سيرجي.

أجابه واحد يرتدي معطفًا من جلد الغنم مغطى بقماش قطني أزرق:

- الجميع يعرفون ذلك. لم تأتِ إلى الكنيسة الليلة أيضًا.

- أي كنيسة تتحدث عنها؟ إنها امرأة دنيئة منحلة لا تخاف الله ولا ضميرها ولا حتى أعين الناس.

قال الميكانيكي، مشيرًا إلى شريط الضوء الذي لاح بين مصراعي النافذة:

- أترون؟ الضوء موقد هناك.

تعالت عدة أصوات معًا:

- فلننظر من خلال الشق الصغير. تُرى ما الذي يحدث في الداخل؟

صعد الميكانيكي فوق أكتاف صديقين، وما إن نظر إلى الداخل حتى صاح بأعلى صوت لديه:

- يا إخوتي، يا أعزائي، إنهما يخنقان شخصًا ما هنا، يخنقانه.

وأخذ الميكانيكي يضرب مصراعي النافذة بكلتا يديه في يأس. حاكى عشرة أشخاص ما فعله، وتسلقوا وصولًا إلى النوافذ، وبدأوا يقرعونها بقبضاتهم أيضًا.

بمرور الوقت تزايد الحشد وضُرِب الحصار الذي حكينا عنه حول بيت آل إسماعيلوف.

شهد الميكانيكي على مقتل فيديا قائلًا:

- لقد رأيت ما يحدث بأم عيني. لقد استلقى الصبي على الفراش وخنقاه.

أخذوا سيرجي إلى قسم الشرطة في الليلة ذاتها، بينما أخذوا كاترينا لفوفنا إلى العلية، وحرس الغرفة حارسان.

كانت البرودة غير محتملة في منزل آل إسماعيلوف؛ فلم يشعلوا المواقد، ولم يغلقوا الباب طوال الوقت، واجتمعت الحشود بكثافة؛ حشد تلو الآخر. ذهب الجميع لرؤية جثمان فيديا ساجيًا في نعشه، وقد غطوا النعش بغطائه. وضعوا فوق جبهته شريط ساتان أبيض

غطوا به الجرح الأحمر الناتج عن تشريح الجمجمة. كشف تشريح الطبيب الشرعي أن فيديا مات مخنوقًا، وعندما واجهوا سيرجي بالجثمان، ومع الكلمات الأولى للكاهن عن الدينونة الرهيبة وعقاب غير التائبين، انفجر في البكاء واعترف صراحة، لا بقتل فيديا وحسب، بل طلب أن يحفروا في الموضع المحدد للوصول إلى جثمان زينوفي بوريسيتش الذي وضعه من دون دفن لائق. لم يكن جثمان زوج كاترينا لفوفنا المدفون في رمال جافة قد تحلل كاملًا بعد، ومن ثم أخرجوه ووضعوه في نعش كبير. شعر الجميع بالرعب حينما اعترف سيرجي بأن سيدته الشابة هي شريكته في الجريمتين. لم تجب كاترينا لفوفنا عن كل الأسئلة التي وُجِّهت إليها إلا بإجابة واحدة: «لا أعرف شيئًا عن ذلك». أجبروا سيرجي على مواجهتها باعترافاته. بعد أن سمعت اعترافاته نظرت كاترينا لفوفنا إليه بذهول أبكم، ولكن من دون غضب، ثم قالت بلا مبالاة:

- ما دام أراد أن يقول ذلك، ليس لديَّ ما أخفيه إذن. لقد قتلتهما.

سألوها:

- لماذا؟

أجابت مشيرة إلى سيرجي الذي خفض رأسه:

- من أجله.

حبسوا المذنبين في السجن، وجذبت هذه القضية الفظيعة انتباه الجميع واستدعت سخطهم، ومن ثم صدر الحكم سريعًا. في نهاية

فبراير حكمت المحكمة الجنائية على سيرجي وأرملة التاجر من الطبقة الثالثة: كاترينا لفوفنا، بالجلد في ميدان عام في السوق التجاري في المدينة، ثم إرسالهما إلى الأعمال الشاقة. في بداية مارس، في صباح ثلجي بارد، أحصى الجلاد عدد الندوب الزرقاء على ظهر كاترينا لفوفنا العاري ثم على كتفي سيرجي العاريتين، وختم وجهه الوسيم بعلامات الأشغال الشاقة الثلاث[1].

طوال هذا الوقت، ولسبب ما، بعث سيرجي في نفوس الناس شعورًا بالتعاطف أكبر مما فعلت كاترينا لفوفنا. سقط ملطخًا وداميًا في أثناء هبوطه من السقالة السوداء، بينما هبطت كاترينا لفوفنا بهدوء، وكل ما فعلته هو أن حاولت ألا تجعل قميص السجن السميك والفضفاض يلتصق بظهرها الممزق بضربات السياط.

حتى في مستشفى السجن حيث أنجبت طفلها هناك، لم تقل شيئًا سوى: «لست في حاجة إليه». والتفتت صوب الحائط، ومن دون أي أنين أو شكوى ضغطت صدرها على الفراش القاسي.

* * *

(١) في هذه الفترة لم تكن العقوبات البدنية قد أُبطِلت بعد في روسيا.

الفصل الثالث عشر

بدأ تحرك عصبة المدانين[1] التي ضمت سيرجي وكاترينا لفوفنا عندما بدأ الربيع بحسب التقويم، لكن في الواقع كانت الشمس كما تقول الحكمة الشعبية: «تسطع بوضوح ولا ترسل دفئًا».

عهدوا بتربية ابن كاترينا لفوفنا إلى العجوز شقيقة بوريس تيموفيتش باعتباره الابن الشرعي للزوج المقتول، وظل الوريث الوحيد لكل أملاك عائلة إسماعيلوف. شعرت كاترينا لفوفنا بالرضا التام عن ذلك، وأعطتهم ابنها بلا مبالاة تامة. ومثلما يحدث عادة مع النساء ذوات العواطف المتقدة، لم ينتقل أي قدر من حبها لوالده إلى الطفل.

علاوة على ذلك، لم يعد هناك وجود بالنسبة لها للنور أو الظلام، للشر أو الخير، للضجر أو السرور، ولم تعد تفهم شيئًا أو تحب أحدًا، ولا حتى نفسها. لقد انتظرت بنفاد صبر بدء تحرك عصبة المدانين على الطريق، حيث أملت أن ترى سيريوجا مجددًا، ونسيت كل ما يتعلق بالطفل، ولم تعد تفكر فيه بتاتًا.

---

(١) في هذه الفترة من التاريخ الروسي كانوا يرسلون المحكوم عليهم بالأعمال الشاقة إلى مناطق بعيدة؛ غالبًا في سيبيريا، ويقطع المدانون طريقًا طويلًا جدًا على الأقدام، ويمرون على بلدان كثيرة. يمكننا الاطلاع على ذلك مثلًا في رواية: «مذكرات من البيت الميت» لدوستويفسكي.

لم تخدعها آمالها؛ خرج سيرجي فعلًا مع المجموعة ذاتها، مقيدًا بالأصفاد الثقيلة، من بوابات السجن.

يمكن للإنسان أن يعتاد على أي وضع مهما كان مريعًا، ويحافظ على إمكانية أن ينعم ببعض المتع اللحظية، لكن كاترينا لفوفنا لم تكن في حاجة إلى ذلك. لقد رأت سيرجي مجددًا، ومعه يُزهر طريق الأعمال الشاقة بالسعادة.

لم تحمل كاترينا لفوفنا معها سوى القليل من الأغراض الثمينة في حقيبة قماشية، وكذلك حملت قدرًا أقل من النقود. لكن قبل أن يصلوا إلى نيجني نوفجورود بمسافة طويلة وزَّعت كل ما معها على الحراس المرافقين لهم حتى يسمحوا لها بأن تسير إلى جانب سيرجي، وتقف معه وتعانقه في الليالي حالكة الظلمة في أحد الأزقة الخلفية الضيقة والباردة لبعض الوقت.

لكن صديق كاترينا لفوفنا الموسوم بعلامة الأشغال الشاقة لم يعد يتعامل معها بلطف، وصار يتحدث معها بطريقة خشنة، ولم يُقدِّر لقاءاتهما السرية التي وهبت من أجلها كل ما معها من طعام وشراب، بل وأنفقت الخمسة والعشرين كوبيكًا الثمينة التي كانت معها في حقيبتها، بل إنه قال لها:

- بدلًا من أن تعطي المال للحارس كي يأتي معي في هذه الزوايا ويتلصص، أعطيني أنا هذا المال.

برَّرت كاترينا لفوفنا موقفها قائلة:

- لم أعطه سوى خمسة وعشرين كوبيكًا يا سيريوجكا.

- أليس هذا مالًا إذن؟ لقد بددتِ الكثير من هذه المبالغ في الطريق على الحراس.

- لكننا التقينا لقاء هذه النقود يا سيريوجا.

- وهل يسهل على المرء أن يشعر بالسرور من اللقاء بعد كل هذا العذاب؟! ظروف كهذه تجعلني ألعن حياتي، ولا أنشد لقاءً غراميًّا.

- إنني لا أبالي بشيء يا سيريوجا ما دمت سأراك.

- كل هذه حماقات.

حدث مرة أن عضت كاترينا لفوفنا شفتيها حتى أدمتهما من سماعها لمثل هذه الإجابات، وفي مرة أخرى تساقطت من عينيها دموع الغضب والضيق في لقاءاتهما الليلية في كنف الظلمة، لكنها احتملت كل ذلك، وظلت صامتة، وأرادت أن تُضلِّل نفسها.

هكذا استمر الأمر في ظل العلاقة الجديدة التي ربطت بينهما حتى وصلوا جميعًا إلى نيجني نوفجورود. هناك التقت جماعتهم بعصبة المدانين الذاهبين إلى سيبيريا عبر طريق موسكو.

ضمت هذه العصبة الضخمة التي شملت مختلف أنواع الناس شخصيتين من قسم النساء مثيرتين للاهتمام: زوجة أحد الجنود، وتُدعى فيونا من ياروسلاف، وهي امرأة فاتنة طويلة القامة، ذات ضفيرة شعر كثيفة سوداء، وعينين بنيتين تعوزهما الحيوية، ورموش كثيفة بدت

كحجاب غامض ينسدل عليهما. أما المرأة الأخرى، فهي شقراء في السابعة عشرة، ذات جلد وردي ناعم وفم دقيق وغمازتين على وجنتيها اليانعتين، وخصلات شعر ذهبية تنسدل بِحرية على جبهتها من تحت غطاء الرأس الخاص بالسجن. دعوا هذه الفتاة «سونيتكا».

كانت فيونا الجميلة لينة الطباع وكسولة. عرفها الجميع، وكان الرجال يشعرون بالسعادة على نحو خاص إذا استطاعوا تحقيق أي نجاح معها، ويشعرون بالحزن إذا رأوا شخصًا آخر قد حقق نجاحًا معها. يقول المدانون بصوت واحد مازحين: «الخالة فيونا أطيب النساء، ولا تجعل أحدًا يشعر بالاستياء أبدًا».

أما سونيتكا فكانت من نوعية أخرى تمامًا. يقولون عنها: «إنها كسمكة الشبوط. تكون في متناول اليد ولا تستطيع الإمساك بها أبدًا». لديها ذوقها الخاص، وقد اتخذت خيارًا صارمًا جدًّا. لقد أرادت أن تُقدَّم العاطفة إليها لا في صورة طبق يتضمن فطرًا عاديًّا، بل أرادتها طبقًا لاذعًا وحريفًا، مليئًا بصنوف المعاناة والتضحيات، في الوقت الذي اتسمت فيه فيونا بالبساطة الروسية التي تجعل حتى صاحبتها تشعر بالكسل فلا تقول لأي شخص: «فلتبعد عني»، ولا تعرف سوى أنها امرأة. حظيت هاتان المرأتان بتقدير خاص وسط عصبة المدانين والجماعات الاشتراكية الديمقراطية البطرسبرجية[1].

سيمثّل ظهور هاتان المرأتان في العصبة التي تضم سيرجي وكاترينا لفوفنا أهمية خاصة في المصير المأساوي النهائي لقصتنا.

---

(١) غالب الظن أن الكاتب يقصد المدانين من الجماعات الاشتراكية في هذا الوقت.

الفصل الرابع عشر

منذ الأيام الأولى لاجتماع العصبتين معًا وانطلاقهما من نيجني إلى كازان بدأ سيرجي يحاول التقرب بصورة واضحة من فيونا، زوجة الجندي، ولم تضِع جهوده عبثًا. لم تعذب فيونا الجميلة الواهنة سيرجي طويلًا، حيث إنها لم تكن تُعذِّب أحدًا طويلًا. في المحطة الثالثة أو الرابعة دبَّرت كاترينا لفوفنا منذ مطلع الفجر عن طريق الرشوة لقاءً بينها وبين سيريوجكا، ولم تنم هذه الليلة. ظلت في انتظار أن يأتي الحارس ويهزها برفق هامسًا: «هيا أسرعي». انفتح الباب، وتحركت امرأة في الردهة سريعًا، ثم انفتح الباب مجددًا، وسرعان ما هب أحد المدانين من فراشه القش هو أيضًا، وتلاشى أيضًا خلف الحارس، وأخيرًا جذب أحدهم الوشاح الذي غطت به كاترينا لفوفنا نفسها. نهضت المرأة الشابة من على الألواح التي حكَّها السجناء كثيرًا بجوانبهم، فألقت المعطف على كتفيها، ودفعت الحارس الواقف أمامها. مكتبة

عبرت كاترينا لفوفنا الردهة المظلمة، وبدا المكان كله مظلمًا إلا من إضاءة خافتة رأت فيها زوجين أو ثلاثة لم تستطع التعرف عليهم

من بعيد. في أثناء عبور كاترينا لفوفنا بأحد الزنازين سمعت عبر نافذة الباب الصغيرة ضحكة مكتومة.

قال الحارس الذي رافق كاترينا لفوفنا وهو يمسكها من كتفيها: «إنهما يستمتعان». ثم دفعها إلى إحدى الزوايا وابتعد.

تحسست كاترينا لفوفنا المكان حولها في الظلمة، فشعرت أنها تلمس معطفًا نسائيًّا ولحية، ولمست يدها الأخرى وجه امرأة ساخنًا. سأل سيرجي بصوت مبحوح:

- من هناك؟

- ماذا تفعل هنا؟ من معك؟

فكَّت كاترينا لفوفنا في الظلام الوشاح الذي يغطي وجه منافستها. هربت المرأة سريعًا، لكنها تعثرت في مكان ما في الردهة.

تعالى الضحك من أحد الزنازين الخاصة بالرجال. همست كاترينا لفوفنا وهي تضرب سيرجي على وجهه بالوشاح الممزق الذي كان لمنافستها: «أيها الوغد».

أوشك سيرجي على رفع يده، لكن كاترينا لفوفنا انسلت سريعًا إلى الردهة، وتوجهت صوب باب زنزانتها. ترددت مجددًا الضحكة الذكورية من إحدى الزنازين، وكانت عالية إلى حد أن الحارس الذي وقف طوال هذا الوقت بلا مبالاة على مقربة، بصق على أطراف حذائه ورفع رأسه وصاح: «هششش!».

استلقت كاترينا لفوفنا صامتة حتى الصباح. أرادت أن تقول لنفسها:

«لا أحبه»، لكنها شعرت أنها تحبه حبًّا أشد وأكثر حرارة. طوال الوقت يرتسم أمام عينيها مشهد واحد؛ كيف يضع يده المرتعشة تحت رأس هذه المرأة، ويحتضن بالأخرى كتفيها الحارَّتين؟

بكت المرأة البائسة، ودَعَتْ إلى الله رغمًا عنها أن تكون هذه اليد تحت رأسها الآن، وتحيط اليد الأخرى بكتفيها المرتعشتين بدرجة هستيرية.

أيقظتها فيونا، زوجة الجندي، صباحًا قائلة:

- حسنًا، أعطيني وشاحي.

- أكانت أنتِ إذن؟

- أعطيني الوشاح من فضلكِ.

- لماذا تُفرِّقين بيننا؟

- كيف أُفرِّق بينكما؟ كما لو أنه حب أو اهتمام حقيقي! ما الذي يغضبكِ؟

فكرت كاترينا لفوفنا لوهلة، ثم أخرجت من تحت وسادتها وشاح الرأس الذي تمزق في الليلة الماضية، وألقت به إلى فيونا، ثم التفتت صوب الحائط.

شعرت ببعض الراحة. قالت لنفسها: «اتفو! من غير المعقول أن أشعر بالغيرة من امرأة تبدو كحوض الغسل المطلي. فليأخذها شيطان! المقارنة بها أمر مثير للأسى».

في اليوم التالي، قال سيرجي في أثناء سيرهما في الطريق:

- اسمعيني يا كاترينا لفوفنا، فكّري في الأمر من فضلكِ. أنا لست زوجكِ زينوفي بوريسيتش، والأمر الآخر أنكِ لم تعودي زوجة التاجر، عظيمة الشأن. لذا أسدي لي معروفًا ولا تنتفخي. لن يُجدي معنا هذا التفاخر الأحمق.

لم تُجب كاترينا لفوفنا بشيء، وسارت لأسبوع إلى جانب سيرجي من دون تبادل كلمة أو نظرة واحدة. ظلت صامدة بالرغم من كل هذه الإهانة، ولم تُرِد أن تخطو الخطوة الأولى صوب التصالح معه في هذا النزاع الأول الذي ينشأ بينهما.

في الوقت الذي شعرت فيه كاترينا بالغضب الشديد من سيرجي، بدأ يغازل سونيتكا الشقراء ويتقرب منها. ينحني إليها أحيانًا قائلًا: «يا فاتنتنا»، ويبتسم، وفي أحيان أخرى يحاول معانقتها بقوة فور أن يلتقيها. ترى كاترينا لفوفنا كل ذلك ويزداد قلبها غليانًا.

قالت كاترينا لفوفنا في نفسها: «هل يجب أن أتصالح معه؟»، وهي تتعثر، وتكاد لا ترى الأرض تحت قدميها.

لكن كبرياءها في هذه اللحظة، أكثر من أي لحظة أخرى، لا تسمح لها بإجراء هذا الصلح. في هذه الأثناء يزداد تقرب سيرجي من سونيتكا أكثر فأكثر، ويتهامس الجميع قائلين إن سونيتكا التي ظلت طوال الوقت تبدو في متناول اليد، ولا تطولها يد في الآن ذاته، صارت أخيرًا في متناول اليد حقًّا.

قالت فيونا لكاترينا لفوفنا:

- لقد بكيتِ بسببي، فماذا فعلت لكِ؟! لقد نلت فرصتي وانقضت فعلًا، لكن يجدر بكِ الآن أن تنظري إلى سونيتكا.

قررت كاترينا لفوفنا فجأة: «لقد فارقتني كرامتي تمامًا. عليَّ أن أتصالح معه فورًا»، وهي تفكر في أمر واحد؛ كيف تستغل أفضل فرصة ممكنة لإجراء هذا الصلح؟

سيرجي هو من أخرجها بنفسه من هذا الموقف الصعب. نادى عليها في أثناء الراحة:

- لفوفنا، هل يمكن أن تأتي إليَّ ليلًا لبرهة قصيرة؟ ثمة أمر أود أن أُحدِّثك بشأنه.

صمتت كاترينا لفوفنا.

- ماذا بكِ؟ ألا تزالين غاضبة مني؟

لم تُجب كاترينا لفوفنا بشيء مجددًا، ولكن سيرجي لاحظ مثل الجميع في أثناء اقترابهم من إحدى نقاط التوقف أنها صارت تتقرب من كبير الحرس، وأعطته سبعة عشر كوبيكًا جمعتهم كصدقة في أثناء الطريق[1]. توسلت إليه قائلة: «سأعطيك عشرة كوبيكات أخرى ما إن أجمعها».

أخفى الحارس النقود في جيبه وقال: «حسنًا».

حينما انتهى هذا الحوار شخر سيرجي وغمز لسونيتكا. احتضن

(١) كانت جماعات المساجين والمدانين تمر في طريقها بمدن كثيرة، وتتلقى عطف وصدقة أهالي هذه المدن.

كاترينا لفوفنا في أثناء دخولها نقطة الاستراحة قائلًا:

- آه منكِ يا كاترينا لفوفنا! لا توجد امرأة مثلها يا رفاق في العالم كله.

احمر وجه كاترينا لفوفنا وتنهدت من فرط سعادتها.

ما إن انفتح الباب بهدوء ليلًا حتى هبَّت وهي تبحث بيدين مرتعشتين عن سيرجي في ظلام الممر. قال سيرجي وهو يعانقها:

- عزيزتي كاتيا.

- آه يا وغدي العزيز!

قالتها وسط الدموع وهي تضغط شفتيها على شفتيه.

مضى الحارس في الممر، متوقفًا ليبصق على طرفي حذائه، ثم يسير مجددًا، والمساجين خلف الأبواب منهكين يشخرون، وقد انهمك فأر في قرض شيء صغير أسفل الموقد، والصراصير تتدفق واحدًا تلو الآخر، وكاترينا لفوفنا لا تزال في نعيمها. لكن سرعان ما انقضى نعيمها وحان وقت سماع الكلمات المبتذلة. اشتكى سيرجي وهو يجلس مع كاترينا لفوفنا على الأرض في إحدى الزوايا:

- أشعر بألم مميت يسري من الكاحل وحتى الركبة.

- ما العمل يا سيريوجا؟

- لا شيء أمامي سوى أن أسعى إلى أن يودعوني في المستشفى في كازان.

- آاه! ماذا تعني يا سيريوجا؟

- وماذا أفعل؟ الألم مميت.

- كيف يمكنك أن تتوقف هنا بينما أستمر أنا في الطريق؟

- وما العمل؟ السلاسل تفرك وتفرك في جسدي إلى أن صارت عظامي لا تحتمل المزيد. (ثم قال بعد دقيقة) عليَّ أن أرتدي بعض الجوارب الصوفية أو شيئًا من هذا القبيل.

- جوارب؟ لديَّ جوارب جديدة يا سيريوجا.

- حقًّا؟

مضت كاترينا لفوفنا إلى زنزانتها من دون أن تقول كلمة واحدة إضافية، وجلبت حقيبتها على فراش القش، وعادت بسرعة شديدة إلى سيرجي وفي يدها زوج جوارب صوفية زرقاء من نوع بولخوف، وقد لاحت أشكال السهام اللامعة على جانبها.

قال سيرجي وهو يودِّعها، ويأخذ منها آخر جوارب لديها:

- حسنًا، سيمضي الأمر هكذا على ما يرام.

عادت كاترينا لفوفنا سعيدة إلى فراشها القش، ونامت نومًا عميقًا.

لم تسمع كيف خرجت سونيتكا بهدوء من زنزانتها، وكيف عادت قبل الصباح.

حدث ذلك قبل وصولهم إلى كازان بمحطتين.

الفصل الخامس عشر

غادرت عصبة المدانين محطتها في يوم بارد كريه، والريح عاصفة، والمطر ينهمر ممزوجًا بالثلج. خرجت كاترينا لفوفنا مبتهجة، ولكن ما إن اتخذت مكانها في الصف حتى ارتج كيانها وشحبت تمامًا. غام المنظر أمام عينيها، وآلمتها مفاصلها كافة، وضعفت تمامًا. رأت أمامها سونيتكا واقفة وقد ارتدت جواربها الصوفية الزرقاء ذات الأسهم اللامعة.

تحركت كاترينا لفوفنا في الطريق شاحبة شحوب الموت، وعيناها فقط تحدقان بصورة مريعة في سيرجي، ولا تفارقانه.

بوصولهما إلى مكان المخيم الأول اقتربت بهدوء من سيرجي، وهمست: «وغد»، وبصقت فجأة في عينيه مباشرة.

أراد سيرجي أن يضربها لكن المحيطين به حالوا دون وقوع ذلك. قال وهو يجفف البصقة على وجهه:

- انتظري لتري ماذا سأفعل بكِ.

تهكم المدانون من سيرجي قائلين:

- ومع ذلك تعاملك بجرأة!

وضحكت سونيتكا ضحكة مرحة على نحو خاص.

لقد سارت هذه المكيدة التي صنعتها سونيتكا على هواها تمامًا. هددت كاترينا لفوفنا سيرجي قائلة:

- لن يمر الأمر بهذه البساطة.

استلقت كاترينا لفوفنا على فراش القش، محطمة النفس، منهكة من سوء الأحوال والسفر المتواصل، ونامت قلقة ليلًا في نقطة الاستراحة، ولم تسمع كيف دخل شخصان بناية النساء.

وصلا إلى قرب فراش القش، نهضت سونيتكا، وأشارت لهما في صمت إلى كاترينا لفوفنا، واستلقت مجددًا وتدثرت بردائها.

في هذه اللحظة أُلقى ثوب كاترينا لفوفنا فوق رأسها، وإذا بالطرف السميك لحبل معقود عقدة مزدوجة ينهال بكل قوة رجل على ظهرها الذي لا يغطيه سوى قميص واحد خشن.

صاحت كاترينا لفوفنا، لكن صوتها لم يُسمع من تحت الثوب الذي غطى رأسها وكتمه. حاولت أن تهب من مكانها، لكنها لم تنجح، فقد جلس فوق كتفها أحد المدانين وأمسكها بيديه بقوة.

عد أحدهما: «خمسون» أخيرًا، ولم يكن من الصعب معرفة أن صاحب الصوت هو سيرجي، ثم تلاشى زائرا الليل سريعًا خلف الباب.

أزاحت كاترينا لفوفنا الثوب من فوق رأسها، وهبت من مكانها، ولكن أحدًا لم يكن موجودًا، ولكن في مكان ليس بعيدًا عنها قهقه

أحدهم بضغينة تحت ثوبه الملتحف به. أدركت كاترينا لفوفنا أن سونيتكا هي التي تضحك.

لم تكن هناك حدود لهذه الإهانة، ولا كان هناك حد للكراهية التي تراكمت في نفس كاترينا لفوفنا. اندفعت من دون تفكير وسقطت على صدر فيونا التي أمسكت بها.

على هذا الصدر الريان الذي أذاق منذ فترة قصيرة حبيب كاترينا لفوفنا المتعة، بكت حزنها غير المحتمل، والتصقت بمنافستها الغبية واللا مبالية كالطفل في حضن أمه. إنهما الآن متكافئتان: لكلتيهما القيمة ذاتها، وقد نالتا التجاهل ذاته.

كلتاهما متكافئتان! امرأة كانت هدفًا لنزوة عابرة صارت مكافئة لكاترينا لفوفنا التي أدت دور البطولة في دراما الحب!

إلا أن شيئًا لم يعد قادرًا على جعل كاترينا لفوفنا تشعر بالاستياء الآن. بعد أن بكت تحجرت، وقررت بهدوء تام أن تخرج لحضور تفقد المساجين.

يضرب الطبل: طاخ طوخ. ويخرج المدانون إلى الساحة؛ المقيدون منهم بالأصفاد وغير المقيدين؛ سيرجي وفيونا وسونيتكا وكاترينا لفوفنا؛ المنشق المقيد بأصفاد إلى يهودي، والبولندي المقيد بأصفاد إلى تتري، على السواء.

احتشد الجميع، ثم اصطفوا بالترتيب وأكملوا سيرهم.

بدت اللوحة كئيبة؛ جماعة من الناس، انتُزعوا من العالم، وحُرِموا

من أدنى درجات الأمل في مستقبل أفضل، غارقين في الوحل الأسود البارد في طريق مترب. بدا كل شيء من حولهم مشوهًا بدرجة مرعبة: وحلٌ لا نهاية له وسماء رمادية وأشجار صفصاف رطبة فقدت أوراقها، والغربان منفوشة الريش على فروعها المفلطحة. الريح تدوي؛ تارة تعوي وتارة تزمجر.

في هذا الضجيج الجهنمي الذي يمزق النفس والذي أتم الهلع في نفس كاترينا، تتردد نصائح زوجة أيوب التوراتية بأن يلعن اليوم الذي وُلِد فيه ويموت.

من لا يريد أن يستمع إلى هذه الكلمات، ومن لا يغريه التفكير في الموت في مثل هذا الوضع المؤسف، بل يخشاه وحسب، يجب أن يحاول أن يكتم هذه الأصوات التي تعوي في أذنيه بشيء أبشع منها. يفهم الإنسان البسيط هذا جيدًا، فيخفض من قدر كل بساطته الحيوانية، ويتغابى، ويسخر من نفسه ومن الناس ومن المشاعر، ويصير شريرًا في ثوانٍ بسيطة.

ما إن توارت العصبة خلف تل قرية مبلل بالمطر ليقضوا الليلة هناك حتى سأل سيرجي كاترينا لفوفنا:

- كيف حال سعادتكِ يا زوجة التاجر؟

ثم التفت صوب سونيتكا، وغطاها بمعطفه، وبدأ يغني بصوت عالٍ:

رأس جميل يلمع خلف النافذة

لا تنامي يا معذبتي. لا تنامي يا شريرة

سأغطيكِ بمعطفي فلا يراكِ أحد

بعد أن غنى سيرجي عانق سونيتكا، وقبَّلها بصوت عالٍ على مرأى من الجميع.

رأت كاترينا لفوفنا كل ذلك ولم ترَ في الآن ذاته؛ سارت وبدت كالميتة. بدأوا يلكزونها ويدفعونها لترى كيف يتواقح سيرجي مع سونيتكا. لقد صارت هدفًا للسخرية. تشفعت فيونا من أجلها حينما حاول أحد الحاضرين أن يسخر من تعثر كاترينا لفوفنا في أثناء السير:

- اتركوها لحالها. ألا ترون أيها الشياطين أنها قد صارت مريضة تمامًا؟

قال أحد المدانين:

- لا بد أنها بللت قدميها.

رد سيرجي عليه:

- من المعروف أن المتحدرين من سلالة التجار ينعمون بنشأة رقيقة. لو حظيت بجوارب دافئة لما عانت من شيء.

بدا الأمر كما لو أن كاترينا لفوفنا استيقظت من سباتها، فلم تحتمل الصمت وقالت:

- وغد شرير. اسخر كما تشاء أيها الوغد، اسخر كما تشاء.

- هذه ليست سخرية إطلاقًا يا زوجة التاجر، لكني أقول ذلك لأن

سونيتكا تود أن تبيع جوارب لا تزال بحالة جيدة، فقلت إنكِ ربما تودين شراءها يا زوجة التاجر.

ضحك كثيرون. سارت كاترينا لفوفنا كآلة.

ساء الطقس بشدة. بدأت رقائق الثلج تتساقط من السحب الرمادية التي تغطي صفحة السماء، وما إن تلامس الأرض حتى تذوب وتزيد من قذارتها. في النهاية يظهر شريط رصاصي قاتم لا يمكن للمرء رؤية الجانب الآخر منه؛ إنه الفولجا. ريح قوية تهب من فوقه، وتدفع أمواجه العالية والواسعة والقاتمة ذهابًا وإيابًا.

اقتربت عصبة المدانين ببطء وارتجاف من ضفة النهر في انتظار المعدية.

اقتربت المعدية قاتمة ومبللة تمامًا، وبدأ القائد في توطين المدانين فيها. قال أحد المدانين عندما انتقلت رقائق الثلج الرطب من الضفة إلى المعدية، واهتزت الأخيرة على أمواج النهر المضطرب:

- يُقال إنهم سوف يسقوننا فودكا على هذه المعدية.

أجابه سيرجي:

- نعم، سيكون من الجيد أن ينعم المرء ببعض الفودكا. (ثم أضاف موجهًا حديثه لكاترينا لفوفنا كي يُسِر سونيتكا) حسنًا يا زوجة التاجر، بحق صداقتنا القديمة فلتقدمي لنا بعض الفودكا. لا تبخلي علينا. تذكري حبنا القديم الحلو، وكيف كنت أتنزه معكِ يا بهجتي، وكيف قضينا ليالي خريفية طويلة، وكيف أرسلتِ

أقاربكِ إلى السلام الأبدي من دون أن يصلي عليهم كاهن وشماس.

ارتعشت كاترينا لفوفنا بشدة من البرودة. علاوة على البرودة التي اخترقت كل عظامها من تحت ثيابها المبللة أصاب شيء آخر جسد كاترينا لفوفنا. بدا الأمر كما لو أن رأسها يحترق، واتسعت حدقتا عينيها ولمعتا ببريق حاد وهما تحدقان في صفحة المياه المضطربة. قالت سونيتكا:

- يسعدني أن أشرب بعض الفودكا. أتوق إليها بشدة.

واصل سيرجي مضايقة كاترينا لفوفنا:

- يا زوجة التاجر، ألن تقدمي لنا بعض الفودكا؟

قالت فيونا وهي تهز رأسها لائمة:

- أين ضميرك؟

قال المدان جورديوشكا مدعمًا زوجة الجندي:

- من غير المُشرِّف أن ينعم مثله بضمير.

- إذا لم تكن تشعر بالخزي منها، فعلى الأقل يجب أن تشعر بالخزي منها أمام الآخرين.

صاح سيرجي في فيونا:

- اصمتي، يا علبة السعوط القبيحة أنتِ. أتقولين أشعر بالخزي؟ مم أشعر بالخزي؟ لم أحبها قَطُّ، والآن... الآن يبدو لي كعبا حذاء سونيتكا أرق من جلد هذه القطة الحقيرة. بم يمكنكِ أن

تجيبي عن ذلك؟ دعيها تحب جورديوشكا صاحب الفم المعوج هذا (ونظر حينها إلى الضابط فوق جواده في ردائه العسكري الطويل وقبعته العسكرية فوق رأسه بريشتها المميزة، وأضاف) من الأفضل أن ندعها تذهب للضابط؛ على الأقل ستحول سترته دون وصول الماء.

قالت سونيتكا:

- على الأقل سيدعوها الجميع حينها «زوجة الضابط».

وأيدها سيرجي قائلًا:

- فعلًا! حينها سيمكنها بسهولة تامة أن تنال جوارب جديدة.

لم تدافع كاترينا لفوفنا عن نفسها، وازداد تحديقها قوة في الأمواج وشفتاها ترتعشان. بين أحاديث سيرجي الدنيئة علا صخب واصطفاق الموج. فجأة، لاح لها وسط إحدى الموجات المتكسرة رأس بوريس تيموفيتش الأزرق، وظهر لها من وسط موجة أخرى زوجها يتقلب على الموجة، معانقًا رأس فيديا. تشعر كاترينا بحاجتها إلى تذكر صلاتها، وتُحرِّك شفتيها وتهمس: «كما تنزهنا معًا، وقضينا ليالي خريفية طويلة وحكمنا على آخرين بميتات عنيفة...».

ارتجفت كاترينا لفوفنا. تركزت نظراتها الزائغة وصارت وحشية. مدت يدها مرة والثانية، من دون أن يراها أحد، أمامها ثم خفضتهما مجددًا. مرت دقيقة، ثم ارتجف جسدها كله من دون أن تُنحِّي عينيها عن المياه القاتمة، ثم انحنت وأمسكت بسونيتكا من قدميها، وبحركة

واحدة قلبتها وأسقطت نفسها معها من المعدية.

تسمر الجميع في أماكنهم من الذهول.

ظهرت كاترينا لفوفنا على سطح المياه ثم غطست مجددًا، بينما ضربت موجة أخرى سونيتكا.

صاحوا من على المعدية:

- الخطاف، ألقوا الخطاف.

أسقطوا خطاف المعدية الثقيل المربوط بحبل طويل في المياه. لم تظهر سونيتكا مجددًا. بمرور ثانيتين كان التيار القوي قد أبعدها تمامًا عن المعدية، ورفعت ذراعيها ثانية، ولكن في هذه اللحظة ظهرت كاترينا لفوفنا من موجة أخرى، وبان جسدها من فوق وسطها تقريبًا، واندفعت صوب سونيتكا كسمكة كراكي قوية تهاجم سمكة منوة صغيرة، ولم تظهرا مجددًا وسط المياه.

١٨٦٤

* * *

فنان الشعور المستعارة

(حكاية رويت عند المقبرة)

في الذكرى المقدسة ليوم ١٩ فبراير [1] ١٨٦١

فلتسكن نفوسهم في خيراتهم

(أنشودة تأبينية)

(١) يوم صدور قانون إلغاء القنانة (العبودية).

-١-

يظن الكثيرون هنا أن «الفنانين» هم فقط الرسامون والنحاتون ومن كرمتهم الأكاديميات الفنية الرسمية بهذه التسمية، ولا يريدون أن يطلقوا هذه التسمية على أي شخص آخر. يعتبر الكثيرون أن سازيكوف وأوفتشينيكوف[١] ليسا أكثر من صائغي فضة، بينما ينظر آخرون إلى الأمر بصورة مختلفة. يتذكر هاينه[٢] حائكًا كان على حد وصفه «فنانًا» وحظي بـ«أفكار فنية»، كما أنهم صاروا يصفون الفساتين التي صممها «وورث[٣]» الآن باعتبارها «أعمالًا فنية». كتبوا عن أحد هذه الفساتين منذ فترة قريبة أنها «ركَّزت عالمًا لا نهائيًّا من الخيال في الصِّدار».

في أمريكا ينظرون إلى المجال الفني بصورة أوسع. يحكي الكاتب الأمريكي اللامع بريت هارت عن فنان اشتهر عندهم فجأة بتخصصه في: «العمل على الموتى». تمثلت مهمته في أن يضفي على وجوه الموتى تعبيرات مطمئنة مختلفة تشهد بدرجة أو بأخرى على الحالة السعيدة لنفوسهم الراحلة.

---

(١) فنانان من موسكو، من أشهر الذين صكوا العملات الرسمية.

(٢) من أهم الشعراء الألمان الرومانسيين.

(٣) تشارلز فريدريك وورث: مصمم أزياء إنجليزي شهير في عصره.

لقد ظهرت عدة مراحل من هذا الفن. أتذكر منها ثلاثًا: الهدوء - التأمل السامي - نعيم التواصل المباشر مع الله. اتسقت سمعة الفنان الكبيرة مع كمال أعماله الفنية العظيمة؛ أي أن الفنانين حظوا بسمعة كبيرة، ولكن للأسف مات الفنان ضحية للحشود الفظة التي لا تُقدِّر حرية الإبداع الفني. رُجِم الفنان لأنه أضفى تعبير «التواصل المباشر مع الله» على وجه مصرفي مزيف راحل سلب المدينة برمتها. أراد ورثة هذا اللص السعداء أن يُعبِّروا عن امتنانهم للراحل، ومن ثم أمروا الفنان بإضفاء هذا التعبير على وجهه، لكن هذا الأمر كلف الفنان حياته.

ظهر لدينا في روسيا أيضًا فنان بارع في نوع غير اعتيادي من الفنون كهذا النوع.

* * *

-٢-

حظي أخي الأصغر بمربية طويلة القامة ونحيفة لكنها عجوز جذابة جدًّا تسمى لوبوف أونيسيموفنا. كانت من ضمن الممثلات السابقات في مسرح أوريول الخاص بالكونت كامينسكي، وكل ما سأقصه الآن حدث أيضًا في أوريول أيام صباي.

يصغرني أخي بسبعة أعوام، ومن ثم عندما بلغ عامين من العمر، وكان بين يدي لوبوف أونيسيموفنا، كنتُ حينها في التاسعة، وهو عمر يُمكِّنني من فهم القصص التي رُوِيت عليَّ.

لم تكن لوبوف أونيسيموفنا حينها قد هرمت بعد، لكنها كانت بيضاء كالقمر. اتسم وجهها بملامح دقيقة ورقيقة، وبخصر عالٍ مستقيم تمامًا، ورشاقة مذهلة كما يمكن أن نجدها في شابة يانعة.

حدث كثيرًا أن قالت أمي وجدتي عنها عندما نظرتا إليها إنها كانت فاتنة بلا شك في أيام شبابها.

كانت أمينة إلى أبعد الحدود، ومتواضعة وحساسة، وأحبت الجانب المأساوي في الحياة، لكنها... لكنها أحيانًا تشرب الخمر.

اعتادت أن تأخذنا في نزهة عند مقبرة كنيسة الثالوث، وتجلس دائمًا هناك على إحدى المقابر البسيطة ذات الصليب القديم، وحدث كثيرًا أن قصت عليَّ هناك حكايات.

هناك سمعت منها حكاية فنان الشعور المستعارة.

-٣-

كان زميل مربيتنا في المسرح، لكن الاختلاف بينهما هو أنها أدت أدوارًا على خشبة المسرح ورقصت عليه، أما هو فكان فنان الشعور المستعارة؛ أي أنه مصفف شعر وخبير في المكياج، صفف الشعور وزين أوجه ممثلات الكونت جميعهن من الأقنان. لم يكن الأمر مجرد مصفف شعر من أولئك الذين يحملون مشطًا خلف آذانهم وعلبة مساحيق قصديرية تحتوي على أحمر شفاه وودك[1]، بل كان إنسانًا ذا أفكار؛ باختصار كان فنانًا.

طبقًا لكلمات لوبوف أونيسيموفنا لم يَفُقه أحد في إضفاء ما يتخيله على الوجه.

لا يمكنني أن أحدد بدقة في زمن أي كونت من آل كامينسكي تحديدًا ازدهرت هاتان الطبيعتان الفنيتان. ثمة ثلاثة نبلاء مشهورون من آل كامينسكي، وقد وصف شيوخ أوريول ثلاثتهم بأنهم طغاة بدرجة لم يُسمع بها من قبل. قتل الأقنان المارشال (المشير) ميخائيل فيدوتوفيتش بقسوة في عام ١٨٠٩، وكان لديه ابنان: نيقولاي الذي مات في ١٨١١، وسيرجي الذي مات في ١٨٣٥.

في الأربعينيات كنت طفلًا، ولا أزال أتذكر البناية الخشبية الرمادية الضخمة بنوافذها المقلدة الملطخة بالسخام والأكسيد، والمسيجة

(١) دسم اللحم، وله استخدامات عديدة، ويبدو أنه كان يستخدم أيضًا في التزيين والمكياج.

بسياج طويل متهدم. كانت هذه هي الضيعة اللعينة للكونت كامينسكي، وهناك أيضًا كان المسرح. لقد أقاموا المسرح في مكان ما هناك يمكن رؤيته بوضوح من مقابر كنيسة الثالوث، ولذلك عندما تريد لوبوف أونيسيموفنا أن تحكي شيئًا، تبدأ دائمًا بالآتي:

- انظر إلى هناك يا عزيزي، أترى كم يبدو مريعًا؟

- يبدو مريعًا فعلًا.

- سأحكي لك الآن كيف هو في الحقيقة أكثر إثارة للهلع مما يبدو.

هذه واحدة من حكاياتها عن مصفف الشعر أركادي، الشاب الحساس والشجاع الذي كان قريبًا جدًّا إلى قلبها.

* * *

-٤-

يصفف أركادي شعور الممثلات فقط، وكذلك يتولى مكياج وجوههن. كان هناك حلاق آخر للممثلين الرجال، ولا يذهب أركادي للقسم الرجالي إلا في حالة واحدة؛ إذا أمره الكونت بنفسه بتصفيف شعر ومكياج شخص ما يجب أن يبدو مظهره شديد النبل. تمثلت السمة الرئيسة لطريقة هذا الفنان في المكياج في «الأفكار»؛ فبفضل أفكاره استطاع أن يُضفي على الوجوه أدق التعبيرات وأكثرها تنوعًا.

قالت لوبوف أونيسيموفنا: «كانوا يستدعونه أحيانًا ويقولون له: «يجب أن نرسم التعبير الفلاني على الوجه». ينصرف أركادي ويأمر الممثل أو الممثلة أن يقف أو يجلس أمامه، ويضع يديه على صدره ويستغرق في التفكير. في هذه الوقفة يبدو أجمل من أي فاتنة، لأنه كان معتدل الطول ورشيقًا بدرجة رائعة. أنفه دقيق وفخور، لكن عينيه ملائكيتان وطيبتان، وتتدلى بروعة من رأسه خصلة شعر كثيفة فوق عينيه فيبدو كما لو أنه يبرز من خلف سحابة ضبابية».

باختصار كان فناننا الخاص بالشعور المستعارة وسيمًا، وأُعجِب به الجميع. حتى الكونت نفسه أحبه، وميزه عن الجميع، وألبسه ثيابًا أنيقة، لكنه فرض عليه إجراءً شديد الصرامة. لقد منعه من قص شعر أحد غيره

وتصفيفه وتسريحه، ولذلك أبقاه دائمًا بقرب حجرة زينته، وإذا أضفنا إليها المسرح لم يكن هناك أي مهرب آخر لأركادي.

لم يُسمح له حتى بالذهاب إلى الكنيسة لأداء سر الاعتراف أو للتناول من الخبز والخمر المقدسين، وذلك لأن الكونت نفسه لم يؤمن بالله ولا احتمل الكهنة، بل حدث ذات مرة أن أطلق كلابه السلوقية على الكهنة الذين أتوه بالصليب في عيد القيامة[1].

طبقًا لرواية لوبوف أونيسيموفنا كان الكونت قبيحًا بدرجة مريعة ترتبت على شره الدائم حتى إنه صار يشبه جميع الحيوانات في وقت واحد. لكن أركادي استطاع أن يضفي تعبيرًا على هذا الشبيه بالحيوانات - ولو لفترة من الوقت - بحيث يبدو الكونت عندما يجلس في مقصورته الخاصة في المسرح أهم من جميع الحاضرين.

لكن في الحقيقة، أهم ما افتقده الجنرال هو تلك الهيئة العسكرية، وهو الأمر الذي كان مبعث إزعاج كبير له.

أراد الكونت أن يضمن ألا يستفيد أحد أبدًا من خدمات أركادي، هذا الفنان الذي لا يُضاهى، ومن ثم جعله يمكث طوال حياته في المنزل، ولا ينال مالًا أبدًا. بلغ أركادي في هذا الوقت خمسة وعشرين

---

(١) هذه الحادثة معروفة في أوريول للكثيرين. لقد سمعتها من جدتي ألفيريفا، ومن التاجر العجوز إيفان أندروسوف المعروف ببره وصدقه، والذي رأى بنفسه كيف مزقت الكلاب الكهنة، ولم ينج من الأمر إلا بحمل هذه الخطية على كاهله: عندما أمره الكونت بالامتثال أمامه، وسأله: «أتشعر بالأسف عليهم؟» أجابه أندروسوف «ولا بأي درجة سعادتكم. كان من الضروري أن تفعل بهم ذلك حتى تلقنهم درسًا فلا يعودون يتسكعون هنا». لهذا وحسب أشفق عليه الكونت وتركه لحاله. (المؤلف)

عامًا فقط، وكانت لوبوف أونيسيموفنا في التاسعة عشرة فحسب. عرف كل منهما الآخر بالطبع، وتألفت في داخلهما هذه المشاعر التي تظهر عادة في مثل هذه السن؛ أي أنهما أحبا بعضهما، لكنهما لم يستطيعا الإعلان عن حبهما في حضور الناس بأي طريقة أخرى إلا بتلميحات غير مباشرة في أثناء إعداد المكياج.

استحال عليهما اللقاء على انفراد، ولم يفكرا حتى في أمر كهذا. قالت لوبوف أونيسيموفنا: «العناية التي أولوها لنا نحن الممثلات تشبه العناية التي يولونها للمربيات في منازل الشخصيات البارزة. عهدوا إلينا بتولي مسؤولية بعض النساء العجائز وأطفالهن، وإذا حدث - لا قدر الله - أن أصاب مكروه أي واحدة منا، يتعرض أطفال هذه المرأة لطغيان مريع. لا يمكن لأحد أيضًا أن ينقض نذر عفتنا إلا السيد الذي نذره من البداية».

* * *

-٥-

لم يقتصر الأمر على أن لوبوف أونيسيموفنا كانت في هذه الفترة في ريعان جمالها وشبابها، لكن أيضًا في أفضل لحظات تطور موهبتها متعددة الجوانب. لقد أنشدت في الجوقات المسرحية ورقصت الرقصات الأساسية في مسرحية «البستانية الصينية»، ولشعورها بانجذاب نحو كل ما هو مأساوي حفظت كل الأدوار عن ظهر قلب.

«لا أعرف العام الذي حدث فيه ذلك تحديدًا، ولكن حدث أن مر الإمبراطور بأوريول، ولا أتذكر ما إذا كان ألكسندر بافلوفيتش أم نيقولاي بافلوفيتش، وقضى ليلته في أوريول، وكان من المنتظر أن يأتي في المساء إلى مسرح الكونت كامينسكي».

دعا الكونت حينها الجميع ليأتوا إلى المسرح، ولم تُبَع التذاكر يومها، واختاروا أفضل العروض للعرض. توجب على لوبوف أونيسيموفنا أن تنشد في الجوقة وترقص في مسرحية «البستانية الصينية»، ثم حدث فجأة في أثناء البروفة الأخيرة أن سقط أحد الكواليس وأصاب قدم إحدى الممثلات التي عهدوا إليها بدور «الدوقة بوربليان».

لم يحدث قَطُّ أن سمعت في أي مكان عن دور في أي مسرحية بهذا الاسم، لكن هذا ما قالته لوبوف أونيسيموفنا.

أرسلوا بلوتنيكوف الذي أسقط الكالوس إلى الإسطبل ليتلقى عقابه هناك، وحملوا المصابة إلى حجرتها الصغيرة، ولكنهم لم يجدوا أحدًا يلعب دور الدوقة بوربليان.

قالت لوبوف أونيسيموفنا: «وهنا عرضت عليهم أن ألعب هذا الدور لأني أعجبت بشدة بالطريقة التي طلبت بها الدوقة دي بوربليان المغفرة عند قدمي والدها، وكيف تموت وخصلات شعرها متناثرة. كانت خصلات شعري شقراء وطويلة بصورة مدهشة، وبعد أن هذبه أركادي صار فاتنًا».

سُر الكونت كثيرًا بعرض الفتاة المفاجئ للعب الدور، وبعد أن أكد له المخرج أن «لوبوف لن تفسد الدور»، قال له: «إذا أفسدَتِ الدور، فظهرُك هو من سيتحمل المسؤولية[1]، والآن ألبِسها هذين القرطين الزبرجديين».

كان هذان القرطان هدية إطراء لكنها بغيضة جدًّا. كانت علامة تشريف الكونت باختيار فتاة أن تصير خادمته، ولو لبرهة من الوقت. بعد ذلك مباشرة، صدر الأمر لأركادي بتولي مسؤولية تصفيف شعر ومكياج الفتاة البريئة التي ستلعب بعد المسرحية دور القديسة سيسيليا؛ وأن يلبسوها رداء أبيض ويضعوا إكليلًا حول شعرها، وأن تحمل السوسن في يدها دلالة البراءة، وأن يرسلوها إلى جناح الكونت.

قالت مربيتي: «لن يمكنكِ في هذا العمر فهم معنى ذلك، لكنه

(١) يقصد أنه سيجلده.

أمر مريع جدًّا، خاصة لي، لأني كنت متيمة بأركادي. ألقيت بالقرطين على الطاولة وانخرطت في البكاء، ولم أستطع حتى أن أتخيل كيف سيمكنني أن ألعب دوري المسرحي في هذا المساء».

* * *

-٦-

في هذه الساعات المصيرية وجد أركادي نفسه هو الآخر أمام فعلة مصيرية.

وصل أخو الكونت من القرية ليتعرف على الإمبراطور، وكان أقبح من أخيه، وقد عاش في القرية منذ زمن بعيد، ولم يرتدِ قَطُّ أزياء عسكرية رسمية، ولم يهتم بتهذيب لحيته لأن «وجهه كله مليء بالبروزات والنتوءات». توجب في مثل هذه المناسبة أن يرتدي ثيابًا عسكرية رسمية، وأن يهذب مظهره كاملًا ويضفي «تعبيرًا عسكريًّا» على شكله.

في الحقيقة تطلب الأمر الكثير. قالت مربيتي: «الناس الآن لا يفهمون مدى صرامة الأمر في هذا الوقت». حينها كان من الضروري الالتزام الصارم بالرسميات كافة، وكان هناك تعبير معين يجب أن يرتسم على وجوه الشخصيات البارزة، وكذلك توجب عليهم تصفيف الشعور المستعارة بطريقة محددة؛ الأمر الذي كان يبدو غير لائق على مظهر البعض بدرجة مريعة، وإذا صففت مثل هذه الشخصيات شعورها بالشكل المطلوب؛ بعقدة شعر منتصبة إلى الأعلى، وخصلات مجعدة، يبدو الوجه كله كبالالايكا[1] ريفية من دون أوتار. كان السادة يخشون كثيرًا أن يبدوا بهذا الشكل. تطلبت مثل هذه الأمور مهارة شديدة في تهذيب اللحية وتصفيف الشعر المستعار، حيث يجب توجيه العناية

(١) آلة موسيقية وترية شعبية منتشرة في روسيا.

إلى كيفية حلاقة مسارات معينة على الوجه بين السالفين والشاربين، والطريقة التي تبدو بها عقصة الشعر المستعار وكيفية التمشيط؛ فمثل هذه التفاصيل الصغيرة هي التي تشكل التعبير المرتسم على الوجه. طبقًا لكلمات مربيتي كان الأمر أسهل بالنسبة للمواطنين المحليين العاديين، حيث لم يكن يُوجَّه اهتمام كبير إلى مظهرهم، وكل ما يُطلَب منهم في مثل هذه الحالات هو أن يظهروا بمظهر أكثر خنوعًا، لكن الأمر مع العسكريين مختلف تمامًا، حيث تطلب الأمر منهم أن يظهروا بمظهر خانع أمام من يفوقونهم سلطة، وفي الآن ذاته يرتسم على ملامحهم التجهم والضراوة أمام البقية.

هذا تحديدًا ما استطاع أركادي بقدرته الفنية المذهلة أن يمنحه لوجه الكونت القبيح والتافه.

* * *

-٧-

كان شقيق الكونت الذي عاش في القرية أكثر قبحًا من أخيه الذي عاش في المدينة، وعلاوة على ذلك جعلته حياته في القرية أشعث تمامًا، وأكسبت وجهه فظاظة شديدة، حتى إنه هو شخصيًّا قد شعر بذلك، ولم يكن هناك أحد ليتولى تهذيب منظره لأنه عامل الجميع ببخل شديد، وصرف مصفف شعره إلى موسكو ليجمع له دخلًا، وظهرت في وجهه نتوءات ضخمة جعلت حلاقة اللحية وتهذيبها أمرًا مستحيلًا وإلا تمزق الوجه كله.

وصل إلى أوريول واستدعى الحلاقين إليه وقال: «إذا استطاع أحد منكم أن يجعلني أبدو كأخي الكونت كامينسكي فسأهبه قطعتين ذهبيتين، وثمة مسدسان موضوعان على الطاولة جاهزان للاستخدام لمن يجرحني منكم. من يتم الأمر منكم جيدًا فسيأخذ العملتين الذهبيتين ويرحل، ولكن من يجرح وجهي جرحًا واحدًا، أو لا يهذب الشعر أو الشاربين جيدًا، فسأقتله فورًا».

قال ذلك لإخافتهم فقط، لكن في الحقيقة كان المسدسان فارغين من الطلقات.

في هذا الوقت كان عدد الحلاقين المحليين في أوريول قليلًا، وعمل أغلبهم في الحمامات العامة، وفي أيديهم آنية الغسل الصغيرة،

مستخدمين العلقات على الجسد، من دون أن يحظوا بأي ذوق أو خيال. هم أنفسهم أدركوا ذلك جيدًا، ورفضوا جميعًا مهمة «تحويل الكونت». قالوا في أنفسهم: «عليه اللعنة هو وعملاته الذهبية». قالوا: «لا نستطيع أن نفعل ذلك بما يرضي سعادتكم، ونحن لا نستحق أن نلمس شخصية مهمة كسعادتكم، وليست لدينا الشفرات المطلوبة لمثل هذه المهمة. شفراتنا بسيطة وروسية، أما وجه سعادتكم فيتطلب شفرات إنجليزية، ولا أحد لديه مثل هذه الشفرات سوى أركادي العامل لدى الكونت».

أمر الكونت بطرد هؤلاء الحلاقين، وقد سعدوا بأن نجوا بأنفسهم، أما هو فذهب إلى أخيه وقال:

- اسمع يا أخي، أود منك أن تسدي إليَّ خدمة كبيرة. اسمح لحلاقك الخاص أركادي أن يتولى شأني في المساء حتى أظهر بمظهر لائق. لم أحلق لحيتي منذ فترة طويلة، والحلاقون المحليون هنا لا يستطيعون إتمام المهمة.

أجاب الكونت أخاه:

- مستوى الحلاقين المحليين هنا شديد السوء. لم أعرف بوجودهم، فحتى كلابي لا أسمح لأحد أن يتولى أمرها سوى حلاقي الخاص. بالنسبة لطلبك، ما تطلبه مني مستحيل، لأني أقسمت إني ما دمت حيًّا أُرزق، فلن يصفف أركادي شعر أحد غيري أو يتولى مكياجه. بوسعك أن ترى بالطبع: هل يمكنني أن أحنث بقسمي أمام عبيدي؟

- ولماذا لا؟ أنت من أقسمت وأنت من تستطيع أن تحنث بقسمك كما تشاء.

أجابه الكونت:

- إذا بدأت التصرف على هذا النحو فلن أعود قادرًا على طلب أي شيء آخر من الناس. قيل لأركادي إن هذا هو قراري، والجميع يعرفون ذلك، ولهذا السبب تحديدًا أبقيته في حال أفضل من الجميع، ولكن إذا جرؤ في أي وقت أن يستخدم فنه من أجل أي شخص عداي، فسوف أجلده حتى الموت وأرسله للتجنيد[1].

- إما هذا أو ذاك؛ إما أن تجلده حتى الموت أو ترسله للتجنيد، لا يمكنك فعل الاثنين.

- حسنًا، فليكن ما تقوله. لن أجلده حتى الموت، بل حتى يقارب الموت وحسب، ثم أرسله بعدها إلى التجنيد.

- أهذه كلمتك الأخيرة يا أخي؟

- نعم.

- وهل هذا هو السبب الوحيد؟

- نعم.

- حسنًا، ظننت أن أخاك أرخص بالنسبة لك من قنك، ولكن اتضح أن الأمر ليس كذلك. في هذه الحالة أرسل أركادي إليَّ ليسرِّح شعر كلبي البودل، وأنا سوف أرى ماذا سوف يفعل.

---

(١) في هذه الفترة كان بوسع السيد الإقطاعي أن يختار من يشاء من أقنانه ليرسلهم إلى التجنيد.

شعر الكونت بالإحراج من الرفض، وقال:

- حسنًا، سوف أرسله إليك ليسرِّح شعر كلبك البودل.

- هذا ما أريده.

وصافح أخاه ورحل.

❊ ❊ ❊

-٨-

حدث ذلك قبيل المساء؛ في الغسق، شتاءً، عندما بدأوا إنارة المصابيح. دعا الكونت أركادي وقال له:

- اذهب إلى أخي في منزله، وسرِّح شعر كلبه البودل.

أجابه أركادي:

- هل يتوجب عليَّ أن أفعل أي شيء آخر؟

- لا شيء آخر، ولكن عد بسرعة لتتولى أمر الممثلات. يجب أن تجهز لوبا[1] لثلاثة أدوار، وبعد المسرحية اجعلها تأتي لي وتبدو كالقديسة سيسيليا.

ارتجف أركادي إيليتش. قال الكونت:

- ماذا بك؟

- اعذرني يا سيدي، لقد تعثرت بالسجادة.

- احذر إذن. هذه علامة لا تبشر بخير.

ما اعتمل في صدر أركادي جعل الأمور له سيان، سواء نحت صوب الأفضل أم الأسوأ.

---

(١) تدليل لوبوف.

ما إن سمع أمر الكونت بأن يجهز لوبا ليجعلها تبدو كالقديسة سيسيليا حتى لم يعد يرى أو يسمع شيئًا، وجمع أدواته في حقيبته الجلدية وانصرف.

* * *

-٩-

وصل إلى شقيق الكونت، ووجد هناك الشموع موقدة عند المرآة، ومسدسين على الطاولة أيضًا، وعلاوة على ذلك لم تكن هناك عملتان ذهبيتان فحسب، بل عشر، ولم يكن المسدسان فارغين بل معبأين برصاص شركسي.

قال شقيق الكونت:

- ليس لديَّ أي كلب بودل، ولكن ما أريده هو الآتي: هيِّئني جيدًا لتبدو هيئتي باعثة على أقصى درجات الاحترام، وخذ عشر عملات ذهبية، وإذا رفضت فسأقتلك.

نظر أركادي إليه وإلى العملات الذهبية، وفجأة -والله وحده يعلم ماذا أصابه حقًّا- بدأ ينظف شقيق الكونت ويسرح شعره ويحلق لحيته ويهذبها. جعله يبدو في أفضل هيئة ممكنة في دقائق بسيطة، ووضع العملات الذهبية في جيبه وقال:

- وداعًا.

أجابه شقيق الكونت:

- انصرف. لكني أود أن أعرف: لماذا أصابك هذا اليأس إلى حد أن قررت أن تفعل ما فعلته الآن؟

- لا يمكن لأحد غيري أن يعرف سبب ما فعلته، والظروف المحيطة بالأمر.

- ربما أنت محصن إذن بسحر من الرصاص ومن ثم لم تخف من المسدسين؟!

- المسدسان لا شيء بالنسبة لي. لم أفكر فيهما.

- كيف ذلك؟ هل يمكن أن تكون قد ظننت أن كلمة سيدك الكونت أهم مني وأني لم أكن لأطلق عليك الرصاص لو جرحتني؟ لو لم تكن محصنًا بسحر جعلك لا تجرحني لكنت قتلتك.

بذكر الكونت مجددًا أمام أركادي ارتجف ثانية وقال في حالة بين اليقظة والحلم:

- لست محصنًا بسحر، لكن الله وهبني عقلًا. قبل أن تمد يدك إلى المسدس لتطلق عليَّ الرصاص كنت سأذبحك بالشفرة.

قال ذلك وأسرع إلى المسرح في الموعد المحدد ليتولى أمر الممثلات. كان جسده كله يرتجف. بينما يهذب كل خصلة شعر في رأسي ينحني ويهمس لي بالأمر ذاته:

- لا تخافي. سوف أصطحبكِ بعيدًا.

* * *

-١٠-

مضى العرض المسرحي على ما يرام لأننا كنا جميعًا كما لو أننا مصنوعون من حجر، ومن ثم تعودنا على الخوف والتعذيب، ومهما كان في قلوبنا نسلك كما لو أن شيئًا لم يحدث.

رأينا من على خشبة المسرح الكونت وأخاه، وكلاهما متشابهان. حتى عندما جاءا إلينا خلف الكواليس عسر علينا أن نُفرِّق بينهما. الفرق الوحيد هو أن سيدنا الكونت بدا أهدأ قليلًا من أخيه، كما لو أنه قد ازداد طيبة بعض الشيء. تعودنا على أن يبدو كذلك قبل أشد نوباته ضراوة، ومن ثم ارتعبنا ورشمنا علامة الصليب قائلين: «الرحمة يا رب، أنقذنا، على من سيصب وحشيته؟».

لم نكن قد عرفنا شيئًا بعد عن فعلة أركادي اليائسة الجنونية، لكن لا بد أن أركادي نفسه أدرك أنه لن يُرحم، وشحب بعد أن رمقه شقيق الكونت، وتمتم بشيء ما في أذن الكونت. تمتعت بحدة سمع شديدة في هذا الوقت فسمعته يقول: «أود أن أنصحك نصيحة أخوية: عليك أن تخاف منه عندما يمد شفرته إلى عنقك ليحلق لحيتك».

أما الكونت فابتسم في هدوء وحسب.

يبدو أن أركادي نفسه سمع كلماته هذه لأنه عندما بدأ يجهزني لدوري الأخير: الدوقة، أفرط في وضع المسحوق عليَّ، وهو أمر

لم يحدث منه قَطُّ، حتى إن مصمم الأزياء الفرنسي بدأ يُخلِّصني من المسحوق الزائد وقال:

- كثير جدًّا. كثير جدًّا[1].

* * *

(١) بالفرنسية في الأصل.

-١١-

عندما انتهى العرض المسرحي خلعوا عني فستان الدوقة دي بوربليان، وألبسوني ثياب القديسة سيسيليا، وكان ثوبًا أبيض، من دون أكمام، مثبتًا ببعض العقد على الكتفين وحسب. لم يكن أحد منا قادرًا على تحمل هذا الفستان. بعد ذلك جاء أركادي حتى يسرح شعري تسريحة تضفي على هيئتي البراءة، كما تبدو القديسة سيسيليا في اللوحات وحول رأسها إكليل صغير. رأى أركادي ستة أشخاص واقفين عند الباب.

يعني ذلك أنه ما إن ينتهي من تسريح شعري ويمضي صوب الباب حتى يأخذوه إلى مكان ما ليعذبوه. كان الموت أفضل مائة مرة من التعذيب الذي يجرونه عندنا. يتم التعذيب باستخدام المخلعة[١] والحبال وكلاليب الرأس. أمام كل هذا التعذيب لا يُعد الإعدام شيئًا على الإطلاق. لقد شيدوا أقبية سرية تحت المنزل برمته، يعيش فيها البشر مقيدين بالأصفاد كالدببة. إذا صادف أن مر أحد بالقرب منهم يمكنه سماع صليل السلاسل وأنين المقيدين بها. لقد أرادوا أن يسمعهم أحد ويعرف معاناتهم، أو أن يصل خبر تعذيبهم إلى السلطة، لكن السلطة لم تجرؤ على التدخل. كانوا يعذبون الناس هناك طويلًا، بل إن البعض

(١) أداة تعذيب قديمة تعمل بالضغط على أطراف الشخص حتى تتفكك مفاصله وتتمزق عضلاته.

كانوا يتعرضون للتعذيب طوال ما تبقى لهم من عمر. مكث أحدهم هناك وألَّف هذا البيت:

سوف تزحف الثعابين عليك وتمص عينيك

وتملأ العقارب وجهك بسمها

يظل يكرر تلاوة هذا البيت الصغير حتى يتملكه الهلع.

البعض الآخر قيدوه مع الدببة المقيدة، بحيث يصير المرء على بُعد نصف بوصة وحسب من مخالب الدب.

إلا أن أركادي هو الشخص الوحيد الذي لم يتم معه كل ذلك، لأنه عندما هرع إلى غرفتي، أمسك بالطاولة سريعًا، وفجأة وجدت النافذة قد تهشمت، ولا أتذكر المزيد.

بدأت أستعيد شتات نفسي بسبب شعوري ببرودة قدمي الشديدة. حركت قدمي وشعرت أن معطفي المصنوع من جلد الذئب أو الدب يغطي جسدي، ومن حولي ظلمة تامة، وجياد سريعة منطلقة؛ جارَّة معها الترويكا[1] إلى وجهة لا أعرفها. وجدت اثنين حولي، وجميعنا يجلس على المزلقة، وأحدهما يمسكني، وهو أركادي إيليتش، والآخر يقود الجياد بأقصى سرعة ممكنة. تناثر الثلج تحت حوافر الخيول، والمزلقة تتأرجح في مختلف الاتجاهات. توجب الجلوس في منتصفها تمامًا والتشبث بأيدينا بقوة، وإلا استحالت النجاة.

سمعت في هذه اللحظات حديثًا قلقًا يدور بينهما، كما لو أنهما

(١) عربة روسية تجرها ثلاثة خيول.

يخشيان طوال الوقت شيئًا ما، ولم أفهم منه سوى: «إنهم قادمون، قادمون، أسرع»، ولم أميز من حديثهما المزيد.

ما إن لاحظ أركادي إيليتش أني أفقت حتى انحنى عليَّ وقال:

- لوبوشكا، آه يا عزيزتي، إنهم يطاردوننا. هل أنتِ مستعدة للموت إذا لم ننجح في الهرب؟

أجبته أني لست مستعدة فقط لذلك، بل إنه يسرني أيضًا.

لقد أمل أن نهرب بالترويكا إلى القرية التركية: خروشوك، حيث هرب الكثير من قومنا من الكونت كامينسكي.

فجأة أسرعنا على النهر المتجمد، ولاح أمامنا شيء ما بدا كبيت، وبدأت بعض الكلاب تنبح. ضرب الحوذي جياده بالسوط، وانعطف بالترويكا بشدة على أحد جانبيها، فانزلقنا، أنا وأركادي، على الثلج، واختفت الترويكا والمزلقة من أمام أبصارنا سريعًا.

قال أركادي:

- لا تخشي شيئًا. ربما توجب على الحوذي أن يفعل ذلك؛ فأنا لا أعرفه وهو لا يعرفنا. لقد هرَّبنا مقابل ثلاث قطع ذهبية أعطيتها له، لكنه أراد أن ينجو بنفسه. الآن سنُسلِّم أنفسنا لإرادة الله. هذه قرية سوخايا أورليتسا، ويعيش فيها قس شجاع يُزوِّج البائسين، ولقد زوَّج الكثيرين من معارفي بالفعل. سوف نقدم له هدية، وسيخفينا حتى المساء، ويُزوِّجنا أيضًا، وحينما يحل المساء سوف يأتي الحوذي إلينا ونهرب سريعًا.

-١٢-

توجهنا إلى المنزل ووصلنا إلى الممر الداخلي. فتح القس بنفسه الباب، وهو عجوز ضئيل البنية، وثمة سِنة مفقودة في الصف الأمامي، وزوجته عجوز واهنة، وقد أشعلت النيران في الموقد عندما دخلنا. ركع كلانا عند قدميه:

- أنقذنا. دعنا نستدفئ وأخفنا حتى المساء.

أجابنا القس:

- من أنتما يا عزيزي؟ هل سرقتما شيئًا أم أنكما مجرد هاربين؟

- لم نسرق شيئًا، بل نهرب من وحشية الكونت كامينسكي، ونريد أن نصل إلى القرية التركية خروشوك حيث يعيش الكثير من معارفنا. لن يجدونا هناك، ولدينا المال، وسوف نعطيك قطعة ذهبية كي تأوينا لليلة واحدة، وثلاث قطع ذهبية كي تزوجنا. زوِّجنا إذا استطعت، وإذا لم تستطع فسنتزوج هناك في خروشوك.

- ولماذا لا أستطيع؟ أستطيع بالطبع. لماذا تتزوجان في خروشوك؟ أعطني خمس قطع ذهبية وسأُزوِّجك هنا.

أعطاه أركادي القطع الخمس، وخلعت من أذني قرطَي الزبرجديين وأعطيتهما لزوجته.

أخذ القس المال وقال:

- آه يا عزيزي، سيتم الأمر بسهولة. لقد زوَّجت الكثيرين، ولكن ليس حسنًا أنكما تابعان للكونت. حتى أنا القس أشعر بالهلع من وحشيته. لكن لنترك الأمور لإرادة الله، وليتم المكتوب. أضف يا بني قطعة ذهبية أخرى أو أقل منها وتواريا.

أعطاه أركادي القطعة السادسة، وحينها قال القس لزوجته:

- ما لكِ أيتها العجوز واقفة هكذا؟ قدِّمي للهاربة تنورة وأي سترة. يشعر المرء بالخزي من النظر إليها هكذا. إنها تبدو عارية.

ثم أراد أن يصطحبنا إلى الكنيسة ويخفينا هناك في الخزانة التي تحوي ثيابه الطقسية. لكن ما إن أخذتني زوجة القس خلف الحاجز وأوشكت على إعطائي الثياب حتى سمعنا أحدهم يقرع الباب.

* * *

-١٣-

سقطت قلوبنا خوفًا. همس القس لأركادي:

- لا يمكنك الاختفاء الآن في الخزانة وسط ثيابي. اختبئ سريعًا أسفل الفراش الريشي.

وقال لي:

- وأنتِ يا عزيزتي اختبئي هنا.

وجعلني أختبئ في صندوق الساعة الضخمة، وأغلق عليَّ ووضع المفتاح في جيبه، وذهب ليفتح الباب. سمعنا أصوات جمع. وقف أحدهم عند الباب، ونظر اثنان من النافذة.

دخل سبعة من رجال الكونت يطاردوننا، وفي أيديهم العصي والسياط، والحبال معلقة بأحزمتهم، ومعهم شخص ثامن مسؤول في منزل الكونت، يرتدي معطفًا طويلًا من جلد الذئب ذا ياقة منتصبة.

كان النصف الأمامي من صندوق الساعة الذي اختبأت فيه منشورًا ومضلعًا، وعليه ستارة قديمة رقيقة مسدلة، وكان بوسعي أن أرى عبرها ما يحدث.

فقد القس رباطة جأشه، خوفًا من أن تسوء الأمور، وارتعش جسده كله أمام مسؤول منزل الكونت، ورشم علامة الصليب وصاح سريعًا:

- آه يا أعزائي! أنا أعرف ما الذي تبحثون عنه، لكني لست مذنبًا في حق الكونت بشيء، وهي أيضًا ليست مذنبة، ليست مذنبة.

وفي كل مرة يرشم علامة الصليب، يشير بإصبعه من فوق كتفه اليسرى إلى صندوق الساعة الذي اختبأت فيه. عندما رأيت سلوكه المذهل هذا قلت في نفسي: «لقد ضعت».

لاحظ مسؤول منزل الكونت هو أيضًا هذه الإشارة وقال:

- نحن نعرف كل شيء. أعطني مفتاح صندوق هذه الساعة.

أشاح القس بذراعه قائلًا:

- آه يا أعزائي! كل شيء واضح فعلًا. سامحوني ولا تؤاخذوني، فلقد نسيت أين وضعت المفتاح. نسيت تمامًا.

في أثناء حديثه هذا ظل يربت على جيبه بيده.

لاحظ مسؤول منزل الكونت الإشارة وأخذ المفتاح من جيبه وفتح الصندوق عليَّ. قال:

- اخرجي يا صقري الجميل! ها قد أمسكت بكِ، وسأمسك قريبًا بصقركِ.

كشف أركادي بالفعل عن نفسه، وخرج من تحت فراش القس الريشي ووقف أمامنا وقال:

- نعم، من الواضح أنه لم يعد في أيدينا شيء لنفعله. لقد ربحتم.

خذوني للتعذيب، لكنها ليست مذنبة في شيء، فقد خطفتها عنوة.

ثم استدار إلى القس، وكل ما فعله هو أن بصق في وجهه.

- هل ترون يا أعزائي كيف يحطون من مكانتي ويكافئون إخلاصي؟ أبلغوا الكونت رجاءً بذلك.

أجابه مسؤول منزل الكونت:

- لا تقلق. سوف يتوجب عليه أن يدفع ثمن كل ذلك.

ثم أمر بإخراجنا؛ أنا وأركادي.

تحركنا في ثلاث مزلقات؛ في الأمامية أوثقوا أركادي مع بعض المطاردين، وأخذوني مع الحرس إلى المزلقة الأخيرة، واستقرت البقية في المزلقة الوسطى.

ابتعد عن طريقنا كل من التقينا بهم في الطريق. ربما ظنوا أنه حفل زفاف.

* * *

-١٤-

وصلنا سريعًا، وما إن دخلنا فناء منزل الكونت حتى توارت عن نظري المزلقة التي أخذوا فيها أركادي، وأخذوني إلى غرفتي السابقة وطرحوا عليَّ سؤالًا تلو الآخر: «كم قضيتِ وقتًا بصحبة أركادي بمفردكما؟»، وأجبتهم:

- لم نقضِ أي وقت بمفردنا بتاتًا.

لم أهرب هنا من المصير الذي قُدِّر لي منذ يوم ولادتي؛ المصير الذي ارتبط بما هو شائن، لا بما هو كريم، وما إن اختليت بنفسي في حجرتي الصغيرة ووضعت رأسي على الوسادة لأبكي من بليتي، حتى سمعت تأوهات مريعة قادمة من تحت الأرض.

عشنا، نحن الفتيات، في الطابق الثاني من بناية خشبية، وكانت هناك أسفلنا غرفة كبيرة نتعلم فيها الغناء والرقص، وكان بالإمكان أن نسمع من الأعلى كل الأصوات. لقد أمر هذا الشيطان الجهنمي رجاله القساة أن يمزقوا أركادي تحت غرفتي مباشرة.

ما إن أدركت أنهم يمزقونه حتى اندفعت إلى الباب، وحاولت

فتحه، لكني وجدته موصدًا. لم أدرك ماذا أردت أن أفعل تحديدًا، وانهرت على الأرض. لكني على الأرض سمعت أصوات التعذيب بصورة أوضح. لم أجد سكينًا أو مسمارًا يمكنني أن أنهي به حياتي. تناولت جديلة شعري ولففتها حول عنقي وحاولت خنق نفسي بها. أخذت أعتصر عنقي حتى تعالى طنين في أذني ولم أعد أرى شيئًا سوى حلقات وفقدت الوعي. بدأت أستفيق مجددًا، ووجدتني في مكان لا أعرفه؛ في كوخ كبير منير. وجدت عجولًا كثيرة حولي، ربما أكثر من عشرة عجول تبدو لطيفة، تقترب مني وتلعق يدي بشفاهها الباردة. ربما ظنت هذه العجول أنها تلعق أمها. هذا ما جعلني أستيقظ فقد شعرت بدغدغة من هذا اللعق. أنظر حولي وأتساءل: أين أنا؟ ثم تدخل امرأة عجوز طويلة القامة، ترتدي ثيابًا زرقاء مبرقشة، وقد ربطت رأسها بوشاح نظيف، ويبدو وجهها لطيفًا.

لاحظتْ هذه المرأة أني استعدت وعيي، فلاطفتني وأخبرتني أني في كوخ العجول التابع لمنزل الكونت.

أشارت لوبوف أونيسيموفنا حينها إلى أبعد زاوية خلف الحواجز الرمادية المتداعية قائلة: «لقد كان هناك».

* * *

-١٥-

لقد وضعوها في حظيرة الماشية لأنهم شكوا في أنها ربما تكون قد جُنَّت. كانوا يضعون هؤلاء الرعاع الذين يشبهون الماشية تحت الاختبار لأن رعاة الماشية كانوا عجائز ووقورين، واعتبروهم قادرين على مراقبة هؤلاء المرضى النفسيين.

اتسمت العجوز ذات الرداء المبرقش، التي استردت لوبوف أونيسيموفنا وعيها في حضورها، بدرجة كبيرة من الطيبة، ودُعِيت دروسيلا.

واصلت مربيتي حديثها قائلة:

- عندما أنهت العجوز عملها قبيل المساء أعدت لي فراشًا من قش شوفان نقي. كان الفراش لينًا كالفراش الريشي.

ثم قالت لي:

- سوف أحكي لكِ يا فتاة كل شيء. يمكنك أن تخبريني بما حدث أيًّا كان. أنا مثلكِ، ولم أظل على هذه الصورة، وبهذا الثوب طوال عمري، بل اختبرت أيضًا حياة أخرى، لا أريد - لا سمح الله - أن أتذكرها الآن، لكني سأقول لكِ: لا تحزني لأنهم

أرسلوكِ إلى حظيرة الماشية. من الأفضل للمرء أن يُنفى هنا حتى يتحاشى هذا الوغد.

ثم خلعت عن عنقها وشاحًا أبيض وأرتني قارورة زجاجية صغيرة أخرجتها من صدرها. سألتها:

- ما هذا؟

- هذه هي القارورة الرهيبة، وفيها سم يداوي بالنسيان.

- أعطيني من هذا السم. أريد أن أنسى كل شيء.

- لا تشربي منه. هذه فودكا. لم أستطع تمالك نفسي ذات مرة؛ فشربت. أعطاني إياها بعض الطيبين. الآن لا أستطيع تدبر أمري من دونها، وهي ضرورية لي. لا تشربي ما دمتِ قادرة، ولا تدينيني على أني آخذ منها بعض الرشفات، فالأمر يؤلمني للغاية. أما أنتِ فلا زال هناك عزاء لكِ: لقد نجا من طغيان سيده.

صحت حينها: «مات؟». وأمسكت بشعري لأمزقه لكنه لم يكن شعري؛ وجدته أبيض اللون.

- أبيض؟ ما هذا؟

- لا تخافي، لا تخافي. لقد اتسخ شعركِ هناك حينما كانوا يفكون خصلاته، أما هو فلا يزال حيًّا يُرزَق، وقد نجا من طغيان سيده. لقد رحمه الكونت رحمة لم يرحم بها أحدًا من قبل. سوف آتي إليكِ ليلًا وأحكي لكِ كل شيء، والآن سوف أشرب المزيد. هذا ضروري لي؛ ضروري لقلبي المتقد.

وشربتْ كل ما في القنينة ونامت.

عندما حل الليل، واستغرق الجميع في النوم، نهضت الخالة دروسيلا ثانية بهدوء، واقتربت من النافذة من دون أن تشعل أي مصباح، وشربت مجددًا من قنينتها الزجاجية، وأخفتها، وسألتني بهدوء:

- هل خمد حزنكِ أم لا؟

- حزني لا يخمد.

اقتربت مني على فراشي الذي أعدته لي وحكت لي أن الكونت بعد أن عاقب أركادي استدعاه إليه وقال له: «كان عليك أن تمر بكل صنوف المعاناة التي هددتك بها، ولكن لأنك المفضل سوف أرحمك. سوف أرسلك غدًا إلى الخدمة العسكرية كفرد زائد على العدد المطلوب، ولكن لأنك لم تخشَ من مسدسَي أخي الكونت والأمير سوف أفتح لك طريق المجد. لا أريد أن تكون أقل من المكانة التي وضعتها لنفسك النبيلة. سوف أرسل خطابًا حتى يرسلوك إلى الحرب مباشرة، ولن تصير جنديًّا بسيطًا في الجيش، بل ستصير رقيبًا في أحد الأفواج لتظهر مدى شجاعتك. حينها لن تكون خاضعًا لسلطتي الشخصية، بل لسلطة الإمبراطور».

قالت لي العجوز ذات الثوب المبرقش: «الآن الوضع أفضل له، ولم يعد يخشى شيئًا. أمر واحد يشغله الآن؛ ما يحدث في المعركة، وليس طغيان سيده».

صدقتها، ولثلاثة أعوام متواصلة كنت أحلم كل يوم بأركادي إيليتش يقاتل في المعركة.

هكذا انقضت ثلاثة أعوام، ومن رأفة الله بي لم يعيدوني طوال هذه الفترة إلى المسرح، وقضيت الوقت كله في كوخ العجول مع الخالة دروسيلا كمساعدة لها. كنت في خير حال هناك لأني أشفقت على هذه المرأة، وحينما يأتي الليل ولا تشرب كثيرًا، أحب الاستماع إليها. لقد تذكرتْ أيضًا كيف ذبح قومنا الكونت الكبير، وكان خادمه الخاص هو المدبر الرئيس لذلك، لأن أحدًا لم يعد قادرًا على تحمل ضراوته المريعة. لكني حتى هذا الوقت لم أكن قد شربت شيئًا بعد، وساعدت الخالة دروسيلا كثيرًا بكل سرور. عاملت الماشية كأنها أبنائي. انجذبت بشدة صوب العجول الصغيرة إلى حد أنه عندما كانت تُسمَّن ثم تؤخذ إلى الذبح لأجل تناولها، كنت أرشم علامة الصليب، وأبكيها ثلاثة أيام. لم أعد ملائمة للمسرح لأني لم أعد أسير بطريقة طبيعية بسبب ارتعاش الساقين. كنت أسير سابقًا بسهولة تامة، ولكن بعد أن أخذني أركادي، فاقدة الوعي تقريبًا، في أثناء البرودة القارسة، تأذت قدماي من البرد، ولم تعد لديَّ القوة الكافية للرقص. صرت مثل الخالة دروسيلا بالضبط بثوبها الكتاني المبرقش، والله وحده يعلم كم كنت سأعيش في ظل هذه الكآبة حتى حدث فجأة ذات يوم قبيل المساء، بينما كنت في الكوخ، والشمس آخذة في الغروب، وأنا أراقب العجول من النافذة، أن وجدت حجرًا دخل من نافذتي وسقط أمامي، ملفوفًا بورقة.

-١٦-

نظرت من النافذة في مختلف الاتجاهات ولم أجد أحدًا. قلت في نفسي: «لا بد أن أحدًا ألقى بالحجر من خلف السياج، ولم يسقط في المكان الذي أراده، بل وصل إليَّ هنا، أنا والعجوز، بالخطأ. هل أفض الورقة من الحجر وأقرأها؟ يبدو أنه يجدر بي أن أفضها لأنه من المؤكد أن شيئًا مكتوبًا فيها، وربما ثمة معلومة هنا من الضروري أن يعرفها المراد بها، وأنا قادرة على إخفاء السر، لكنني سوف ألقي بالحجر والورقة بالطريقة ذاتها للشخص المنشود».

فضضت الورقة وبدأت أقرأ، ولم أصدق عينَي.

* * *

-١٧-

«حبيبتي المخلصة لوبا، لقد قاتلت وخدمت الإمبراطور وسُفكت دمائي أكثر من مرة، ولذلك ترقيت إلى رتبة ضابط، واكتسبت لقبًا نبيلًا. أخذت عطلة حتى تُشفى جروحي، واستقررت في نزل حانة بوشكارسكي مع صاحب الحانة، وغدًا سأرتدي أوسمة الشرف والصلبان الفخرية وأذهب إلى الكونت وأعرض عليه كل ما أعطوني من مال لأعالج جروحي به: ٥٠٠ روبل، وسأطلب منه أن يسمح لي بافتدائك أملًا في أن نتزوج أمام عرش الخالق القدير».

واصلت لوبوف أونيسيموفنا وهي تكبت انفعالها. وكتب أيضًا:

«أيًّا كانت صنوف المعاناة التي أصابتكِ، وأيًّا كان ما حدث لكِ، سوف أنظر لكل ذلك دائمًا باحترام وتبجيل، وليس كخطية أو ضعف، وسأترك أمره لله.

أركادي إيليتش»

أحرقت لوبوف أونيسيموفنا الخطاب في الموقد، ولم تحكِ لأحد عنه، ولا حتى للعجوز ذات الرداء الكتاني المبرقش، وظلت تصلي طوال الليل، ولم تتضمن صلاتها الكثير عنها، بل صلت من

أجله وقالت: «بالرغم من أنه كتب أنه قد صار ضابطًا، ونال أوسمة شرف، وأُصيب في الحرب، فإنني لم أتصور بأي طريقة مختلفة عن قبل سيعامله الكونت. لقد خشيت ببساطة أن يضربه مجددًا».

❊ ❊ ❊

-١٨-

في الصباح الباكر أخرجت لوبوف أونيسيموفنا العجول إلى ضوء الشمس، وما إن بدأت في إطعامهم قشر الخبز وإروائهم باللبن حتى سمعت فجأة أصوات بعض الأحرار من غير الأقنان يهرعون إلى مكان ما خلف السياج ويتحدثون في أثناء ركضهم.

قالت لي لوبوف أونيسيموفنا: لم أستطع تبين كلمة واحدة من أحاديثهم، لكن وقع كلماتهم عليَّ كان كسكين يمزق قلبي. في هذه اللحظة جاء فيليب العامل بنقل الروث، فقلت له:

- أخي فيليوشكا، ألم تسمع عم يتحدث هؤلاء الناس بهذا الفضول؟

- إنهم ذاهبون إلى نزل حانة بوشكارسكي حيث ذبح صاحب النُّزُل هناك ضابطًا نائمًا ليلًا. ذبحه من أجل أن يستولي على خمسمائة روبل منه. أمسكوا به غارقًا في الدماء والنقود معه.

ما إن قال ذلك حتى تهاوت ساقاي تمامًا.

هذا ما حدث. لقد ذبح صاحب النُّزُل أركادي إيليتش فعلًا. دفنوه هنا في هذه المقبرة التي نحن جالسان فيها الآن. نعم، إنه يرقد تحتنا

الآن؛ تحت هذه الرابية. هل عرفت الآن لماذا أتنزه دائمًا هنا معك؟ لا أريد أن أنظر هناك (وأشارت إلى الأطلال الكئيبة الرمادية)، بل أريد أن أجلس هنا إلى جانبه وأشرب بعض قطرات الفودكا في نخبه.

❊ ❊ ❊

-١٩-

هنا توقفت لوبوف أونيسيموفنا، واعتبرت أنها انتهت من حكايتها، وأخرجت قنينتها الزجاجية الصغيرة وشربت بعض القطرات في نخبه. سألتها:

- من دفن فنان الشعور المستعارة اللامع هنا؟

- رئيس المقاطعة يا عزيزي. لقد حضر الدفن بنفسه. أتصدق؟ صار ضابطًا، ومن ثم أتوا بالقس والشماس من أجل دفن أركادي البوليار[١]. هكذا أسموه، وبينما ينزلون نعشه أطلق الجنود النيران في السماء تحية له. بعد مرور عام جلدوا صاحب النُّزُل في سوق إيلينكا؛ جلدوه ثلاثًا وأربعين جلدة على قتله لأركادي إيليتش، لكنه تحملها وظل حيًّا ووسموه بختم الأشغال الشاقة التي حُكِم عليه بها. ذهب كل القادرين من فلاحينا لرؤيته وهو يُجلَد، أما الشيوخ الذين لا يزالون قادرين على تذكر كيف عوقب الرجل على جريمته في حق الكونت القاسي فقالوا إن الجلدات الثلاث والأربعين كانت هينة، لأنها من أجل أركادي وهو من عامة

(١) من أعلى الرتب في الأرستقراطيات السلافية القديمة.

الشعب، والرجل يجب أن يتلقى مائة جلدة من أجل الكونت. طبقًا للقانون لا يمكن الحكم بهذا العدد من الجلدات، فلا بد أن يكون عدد الجلدات فرديًّا دائمًا. يُقال إن الجلاد أتوا به من تولا خصوصًا، وقبل أن يبدأ الجلد جعلوه يشرب ثلاث كؤوس من الرم. جلده مائة جلدة من أجل أن يُعذِّبه وحسب، وظل الرجل حيًّا فعلًا، أما الجلدة رقم مائة وواحد فقد حطمت ظهره تمامًا. حاولوا رفعه من على اللوح الخشبي لكنهم وجدوا أن أمره قد انتهى تمامًا. غطوا جسده بالخيش وأرسلوه إلى السجن، لكنه مات في الطريق. يُقال أيضًا إن الجلاد الذي أتوا به من تولا ظل يصيح: «دعوني أجلده المزيد. دعوني أقتل كل هؤلاء القوم من أوريول».

- ألم تحضري الدفن؟

- حضرته. ذهبت مع الجميع. لقد أمر الكونت أن يأتوا بفريق المسرح كله ليحضر الدفن ويرى المجد الذي استحقه واحد منا.

- وهل ودعتِه[1]؟

- نعم بالطبع. ذهبنا جميعًا وودعناه. لقد تغير إلى حد أني لم أتعرف عليه. نحل وشحب شحوبًا شديدًا. يقولون إن دماءه كلها قد سالت منه لأنه ذبحه تمامًا في منتصف الليل. كم سالت دماؤه!

صمتت واستغرقت في التفكير.

---

(١) في بعض البلدان يعتاد المعزون المرور على تابوت الراحل والنظر إليه داخل الصندوق كوداع أخير.

- وماذا عنكِ؟ ماذا حدث لكِ بعد ذلك؟

بدا وكأنها استفاقت فجأة ووضعت يدها على جبهتها. وقالت:

- لا يمكنني أن أتذكر ماذا حدث في البداية أو كيف عدت إلى المنزل. كنت بصحبة الجميع بالطبع. لا بد أن أحدهم اصطحبني إلى المنزل. في المساء قالت لي دروسيلا بتروفنا:

- لا يمكن أن يستمر الأمر كذلك. أنتِ لا تنامين وفي الآن ذاته تستلقين هنا كما لو أنكِ قطعة حجر. هذا سيئ. فلتبكي حتى تستريحي.

- لا أستطيع يا خالة. قلبي يتقد كالفحم، ولم تعد لديَّ دموع.

- لا مفر إذن من القنينة.

وصبت لي من زجاجتها وقالت:

- في البداية أنا نفسي لم أكن لأسمح لكِ بذلك وكنت لأثبطكِ، ولكن الآن ليس في الإمكان فعل شيء آخر. فلنصب على الفحم المتقد. اشربي.

- لا أريد.

- ومن يريد أن يشرب أيتها المغفلة الصغيرة! الحزن مرير والسم أكثر مرارة، ولكن سكب هذا السم على الفحم يطفئه لبرهة قصيرة. اشربي، اشربي بسرعة.

شربت القنينة كلها سريعًا. كان شعورًا منفرًا لكني لم أستطع النوم من دون ذلك، وفي الليلة التالية شربت مجددًا. الآن لم يعد بإمكاني النوم من دون شرب، وقد جلبت قنينة لنفسي، وأشتري الفودكا بنفسي.

لا تقل شيئًا لماما يا عزيزي الصغير عن ذلك، فلا يجب عليك أبدًا أن تفضح سر أحد البسطاء، لأنهم في حاجة إلى الحماية، وهم يعانون كثيرًا. في طريق عودتنا إلى المنزل سيتوجب عليَّ العودة إلى زاوية الحانة مجددًا والطرق على نافذتها الصغيرة. لن ندخل الحانة بأنفسنا بل أعطيهم من النافذة القنينة الفارغة ويعطونني قنينة جديدة.

تأثرت بشدة من حديثها ووعدتها أنني لن أخبر أحدًا أبدًا شيئًا عن القنينة.

- شكرًا يا عزيزي. لا تقل شيئًا أبدًا لأحد عن ذلك. هذا ضروري لي.

أستطيع الآن أن أراها وأسمعها في كل ليلة؛ فعندما يغط جميع أفراد المنزل في النوم تنهض بهدوء من على فراشها حتى لا يصدر عنه صوت، وتنصت جيدًا، ثم تفارق فراشها، وتتسلل إلى النافذة الصغيرة بقدميها الطويلتين المصابتين. تقف هناك لدقيقة، محدقة في المنظر أمامها، وتنصت مستمعة. عندما تجد أن أحدًا لا يتحرك في غرفة نوم والدتي تلمس بأسنانها برفق عنق قنينتها وتجهزها ثم تشرب: رشفة فالثانية فالثالثة. تسكب على الفحم المتقد وتتذكر أركادي، ثم تعود إلى فراشها، وتتدثر بالبطانية، وسرعان ما تصفر نائمة بهدوء: فو فو فو فو، وتستغرق في النوم.

لم أرَ في حياتي قَطُّ وداعًا لأحد الراحلين أكثر إثارة للهلع وتمزيقًا للنفس من هذا الوداع.

١٨٨٣

خداع

«وَنُجُومُ السَّمَاءِ سَقَطَتْ إِلَى الأَرْضِ كَمَا تَطْرَحُ شَجَرَةُ التِّينِ سُقَاطَهَا إِذَا هَزَّتْهَا رِيحٌ عَظِيمَةٌ»(١).

(١) رؤيا يوحنا ٦: ١٣.

الفصل الأول

قبيل عيد الميلاد مباشرة سافرنا إلى الجنوب، وناقشنا في أثناء جلوسنا في عربة القطار القضايا المعاصرة التي تُقدِّم مواد كثيرة للحوار، وفي الآن ذاته تتطلب حسمًا سريعًا. تحدثنا عن ضعف الشخصيات الروسية، وعدم تمتع بعض الأفراد القائمين في السلطة بالقدر الكافي من الصلابة، كما تحدثنا عن المدرسة الكلاسيكية وعن اليهود. أكثر ما وجَّهنا إليه انتباهنا في الحديث هو ضرورة دعم السلطة في كل إجراء من شأنه أن يقضي على اليهود إذا لم نتمكن من إصلاحهم، أو على الأقل رفعهم إلى درجة مقبولة من السمو الأخلاقي الذي نتميز به. إلا أن المناقشة لم تسِر على ما يرام. لا أحد منا استطاع أن يجد وسيلة يصل بها إلى السلطة أو يعيد بها كل المولودين في كنف اليهودية إلى أرحام أمهاتهم، ليولدوا من جديد بطبائع مختلفة تمامًا.

- في حقيقة الأمر، كيف يمكننا تحقيق ذلك؟

- لا يمكنك أن تفعل ذلك بأي طريقة من الطرق.

وأحنينا رؤوسنا أسفًا.

كانت الرفقة جيدة، فجميعنا أناس متواضعون وذوو آراء لا شك في عمقها.

على المرء أن يعترف أن أهم شخصية وسط هذه الرفقة كانت أحد العسكريين المتقاعدين. كان عجوزًا ذا بنية رياضية. لم نعرف رتبته العسكرية لأن الشيء الوحيد الذي استطاع الصمود حتى هذا الوقت من مجمل ذخيرته القتالية هو قبعته العسكرية، واستُبدل بكل شيء آخر أغراض مدنية غير عسكرية. كان العجوز أشيب الشعر كنسطور[1]، وقوي العضلات كشمشون حين لم تكن دليلة قد قصت شعره بعد. ساد تعبير صلب وحاسم على الملامح الخشنة لوجهه الأسمر، كما لاح عليه التصميم. لقد اتسم بشخصية إيجابية بلا أدنى شك، كما اتسم بنزعة عملية قوية. لا يمضي هؤلاء الناس هكذا من دون تأثير في عصرنا، أو في أي عصر آخر.

لقد فعل العجوز كل شيء بذكاء ووضوح وتدقيق. دخل عربة القطار قبل الآخرين جميعًا، ومن ثم استطاع العثور لنفسه على أفضل مكان، وألحق به المكانين المجاورين بمهارة، وأبقاهما لنفسه بترتيب ماهر لحقائب سفره عليهما، وهو ترتيب من الواضح أنه فكر فيه سابقًا. أحضر معه ثلاث وسائد ذات أحجام كبيرة للغاية. شكّلت هذه الوسائد في حد ذاتها كمية لا بأس بها من المتاع لفرد واحد، لكنها كانت مزخرفة جيدًا كما لو أن كل واحدة منها تنتمي لراكب مختلف. واحدة من هذه

(١) ملك بيلوس في الأساطير الإغريقية.

الوسائد من قماش أزرق داكن ومرسوم عليها نبات «لا تنسني[1]»، وهي وسادة نجدها غالبًا لدى المسافرين من رجال الكنيسة الريفيين، والوسادة الأخرى من قماش أحمر يستخدمها التجار عادة، والثالثة من قماش مقلم سميك تصلح حقًّا لرتبة قائد أركان حرب. من الواضح أن الراكب لم ينشد تشكيل مجموعة متناسقة من الوسائد، بل هدف إلى شيء أكثر أساسية؛ لقد هدف إلى التكيف مع أهداف أخرى أكثر أهمية وأساسية.

كان بوسع ثلاث وسائد متنافرة الشكل كهذه الوسائد أن تخدع أي شخص بأن الأماكن التي تشغلها هي أماكن لثلاثة أشخاص مختلفين، ومسافرنا الحكيم ليس في حاجة لشيء سوى ذلك.

علاوة على ذلك لم يكن لهذه الوسائد الثلاث الموضوعة بمهارة اسم واحد بسيط يمكن للمرء أن يلحظه بسهولة من النظرة الأولى. كانت الوسادة الأولى ذات القماش الأزرق الداكن في حقيقة الأمر حقيبة وموضعًا لحفظ الأغراض، وعلى هذا الأساس حظيت بالأفضلية على الوسادتين الأخريين من حيث انتباه صاحبها لها. لقد وضعها في مواجهته، وما إن بدأ القطار في التحرك حتى فك الأزرار العظمية لكيس الوسادة وخففها، وبدأ يخرج من الفتحة الكبيرة التي ظهرت منها أغراضًا متنوعة ذات أوزان مختلفة تضمنت عبوات ملفوفة بعناية ومهارة تحوي الجبن والكافيار والسجق وأقراص الخبز وتفاحًا من نوع «أنطون» وكعك الفواكه. أما الشيء الذي بدا أكثر إثارة للبهجة من كل

(١) تسمية شهيرة لنبات Myosotis.

ذلك، فهو القارورة الكريستالية التي حوت سائلًا أرجوانيًّا لطيفًا، وعلى القارورة كتابة قديمة شهيرة: «حتى الرهبان يتقاسمونها». كان السائل الأرجواني اللزج من النوع الفاخر، وربما كان مذاقه يتسق في جماله مع لونه. يؤكد الخبراء أن مذاقه لا يقل في روعته عن لونه.

طوال الوقت الذي انخرط فيه الركاب الآخرون في التحدث عن اليهود والوطن وتفسخ أخلاق الناس، وعن «كيف أفسدنا أنفسنا في كل شيء»، وكيف يمكننا بشكل عام أن نطهر الأساسات، لزم بطلنا ذو الشعر الأشيب هدوءًا مهيبًا. لقد تصرف كإنسان يعرف متى يحل الوقت الذي يقول فيه كلمته، وفي هذه الأثناء، انشغل ببساطة بتناول المؤن التي يخرجها من الوسادة المخططة، وشرب ثلاث أو أربع كؤوس من هذا السائل الفاتح للشهية المكتوب على قارورته: «حتى الرهبان يتقاسمونها». طوال هذا الوقت لم يصدر عنه أي صوت. لكن عندما انتهت هذه المهمة بالغة الأهمية كما يجب، وعندما رتب كل أغراضه السابقة، نقر بسكينه القابل للطي، وأشعل سيجارة كبيرة بدرجة غير معقولة لفَّها بنفسه، ثم تحدث فجأة واستولى على انتباه الجميع.

تحدث بصوت مرتفع وبجرأة، حتى إن أحدًا لم يفكر في معارضته، والأهم من ذلك أنه ضَمَّن حديثه عنصرًا حيويًّا يشغل الجميع ومحببًا لا يقارب السياسة والرقابة الأخلاقية إلا بدرجة طفيفة للغاية، من دون إزعاج أو إفساد للمغامرات المثيرة للماضي.

* * *

الفصل الثاني

بدأ حديثه بلطف شديد، وبعذوبة فائقة، بل وبإشارة جميلة إلى «الجمع الحاضر هنا»، ثم انتقل مباشرة إلى موضوع مناقشتنا الطويل، والذي صار في يومنا هذا مثارًا لمناقشات واسعة النطاق. قال:

كما ترون، لا يقتصر الأمر على أن ما تتحدثون عنه ليس غريبًا عني، ولكن - والحق يُقال - أنا على دراية جيدة به. كما ترون لست في مقتبل العمر. لقد عشت طويلًا، وبوسعي أن أقول إني عايشت الكثير والكثير. كل ما تتحدثون عنه، عن اليهود والبولنديين، صحيح بالطبع، لكن كل هذا يحدث بسبب رقتنا الروسية الحمقاء، ورغبتنا في أن نكون أرق من الجميع. نسالم الآخرين ونسحق قومنا. كل هذا معروف لي تمامًا للأسف، بل وربما أكثر من ذلك. لقد اختبرت هذا الأمر في نفسي، لكنكم مخطئون إذا ظننتم أن كل هذا قد حدث مؤخرًا. حدث الأمر منذ زمن بعيد، وهو يُذكِّرني بقصة مميتة. لست بالطبع من هذا النوع الرائع الذي انتمت إليه شهرزاد، إلا أن بوسعي أنا أيضًا أن أُسلِّي سلطانًا آخر بقصص غير تافهة. أنا أعرف اليهود جيدًا لأنني أعيش في هذه النواحي التي يمكنني فيها أن أراهم كثيرًا، بل إنني في الماضي، حينما كنت لا

أزال ضابطًا في الجيش، وحينما توليت منصب عمدة إحدى المدن، احتككت بهم كثيرًا. حدث أن اقترضت منهم مالًا، وحدث أن جذبتهم من خصلات شعورهم الطويلة وطردتهم شر طردة، خاصة عندما يأتي إليَّ أحدهم ليتقاضى فوائد ماله الذي أقرضني إياه بالربا، ولا يكون لديَّ مال لأدفع له. لكني مررت بأوقات أيضًا كنت على علاقة جيدة بهم، وذهبت إلى حفلات زفافهم وأكلت المصة والكوجل والهومنتاش[1]، حتى إنني أُفضِّل الآن تناول خبزهم الممزوج بحبة البركة مع الشاي أكثر من رغيفنا الروسي الرطب، لكنني لا أفهم حقًّا ماذا يريد الناس أن يفعلوا بهم الآن. يتحدثون الآن عنهم في كل مكان، بل ويكتبون عنهم في الصحف. ما الجدوى من كل ذلك؟ في أيامنا كان يكفي أن يلمس المرء منا الواحد منهم بغليونه من ظهره، وإذا تواقح اليهودي يلقي عليه بعض التوت البري، وإذا به يركض. لا يساوي اليهودي أكثر من ذلك، أما التخلص منهم كاملًا فهو أمر لا ضرورة له على الإطلاق، ففي بعض الأحيان تكون هناك بعض الفوائد لليهود.

فيما يتعلق بكل الدناءات التي تُنسب عادة لليهود، سوف أقول لكم إنها لا تساوي شيئًا إذا قورنت بدناءات المولدوفيين والفولاسيين[2]، ومن جانبي كنت لأقترح ألا نحاول إعادة اليهود إلى أرحام أمهاتهم، لأن هذا أمر غير ممكن من جهة، ومن جهة أخرى لأنني أتذكر أناسًا أسوأ من اليهود.

---

(١) أنواع مختلفة من الخبز والمعجنات اليهودية.

(٢) من أسلاف الشعوب الرومانية الشرقية.

- مثل من؟

- الرومانيين مثلًا!

رد راكب يحمل علبة السعوط في يديه:

- نعم، يُقال إنهم سيئون أيضًا.

حينها صاح بطلنا العجوز وقد انتعش تمامًا:

- آه يا إلهي! صدقني إنهم الأسوأ على وجه البسيطة. لقد سمعت عنهم وحسب، لكن كلام الناس يبدو كسلم لا يعرف أحد إلام يؤدي، أما أنا فقد اختبرت ذلك بنفسي، وأشهد كمسيحي أرثوذكسي صالح أنه بالرغم من أنهم يشاركوننا الإيمان الأرثوذكسي القويم حتى إننا قد نضطر في يوم ما إلى القتال من أجلهم، فإنهم في الحقيقة أوغاد لم أرَ مثلهم في العالم كله.

ثم حكى لنا عن بعض حيلهم الشيطانية التي كانت تُمارس، أو مورست ذات يوم، في هذه البقاع التي زارها في مولدوفا في أثناء عمله العسكري، لكن كل ما حكاه عن ذلك لم يكن جديدًا، كما كان ذا تأثير محدود حتى إن تاجرًا أصلع عجوزًا من مستمعيه تثاءب وقال:

- هذه القصص ليست جديدة على أسماعنا.

أساء هذا التعليق لبطل قصتنا، فرفع حاجبيه قليلًا وقال:

- حسنًا، لا شك إذن أن رؤية محتال ليست أمرًا غريبًا على التاجر الروسي.

ثم التفت الراوي إلى من بدوا له أكثر استنارة وقال:

- ما دمنا وصلنا إلى هذه المرحلة فسوف أحكي لكم أيها السادة حكاية كوميدية عن طبقتنا الروسية الثرية. سوف أحكي لكم عن أخلاق السادة أصحاب الأراضي. هنا سوف نتعرض إلى تلك الغمامة التي نرى من خلالها الرقة التي لا نؤذي بها أحدًا سوى أنفسنا.

طلبنا منه بالطبع أن يقص علينا حكايته، واستهل الحكاية بأنها واحدة من أكثر المواقف إثارة للاهتمام حدثت إبان عمله العسكري.

الفصل الثالث

بدأ الراوي حكايته كالتالي:

كما تعرفون، أكثر ما يكشف طبيعة البشر الحقيقية هو المال ولعب الورق والحب. يُقال إن التعرض لخطر الموت غرقًا يكشف أيضًا طبيعة البشر الحقيقية، لكنني لا أعتقد ذلك، فعند التعرض لمثل هذا الخطر قد يتجرأ الجبان ويخاف الشجاع. لعب الورق والحب. قد يكون الحب حتى أهم من لعب الورق، لأنه شائع في كل مكان وزمان. عبَّر الشاعر عن ذلك بصورة رائعة حينما قال: «يسود الحب على كل القلوب». ولا يمكن للبشر أن يعيشوا في غياب الحب، حتى بشر الشعوب البدائية. أما نحن العسكريون فبه نحيا جميعًا ونوجد. يمكننا أن نفترض أن هذه العبارة قيلت عن نوع آخر من الحب، لكن بغض النظر عن كل ما يختلقه القسس، يظل كل حب هو «ولع بهدف ما». هذا ما قاله كورجانوف[1]، لكن الأهداف كثيرة ومتنوعة. علاوة على ذلك تختلف الأهداف في فترة الشباب عنها في فترة الشيخوخة، ولكن أكثر أهداف الحب شيوعًا

(١) نيقولاي كورجانوف: كاتب روسي قديم.

هو المرأة. لا يمكن لأي واعظ أن يُفنِّد هذه الحقيقة لأن الله أعظم منهم جميعًا، وهو من قال: «لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعَ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ[1]».

في زماننا لم تكن لدى النساء أحلام الاستقلالية التي تحلم بها نساء اليوم، وأنا لا أدينهن على ذلك، لأن هناك أزواجًا تستحيل الحياة معهم حتى إن الإخلاص لهم قد يصل إلى مرتبة الخطية. في زماننا لم تكن هناك هذه الزيجات المدنية الموجودة الآن. في هذه الفترة كان الأعزب يتسم بقدر أكبر من الحذر تجاه فكرة الزواج، ويُقدِّر حريته بدرجة أكبر. كانت الزيجات حينها لا تُجرى إلا في الكنيسة، ولم يكن هناك أي اعتراض عام مُثار ضد حياة الحب الحر[2] للعسكريين. يمكننا أن نرى من خلال روايات ليرمنتوف[3] أن هذه الخطية كانت شائعة تمامًا، لكن كل ذلك حدث بطريقة انشقاقية، أي من دون أن يترك دليلًا من خلفه. كان الأمر كذلك بصورة خاصة مع العسكريين، فهم ينتقلون من مكان لآخر، ولا يُسمح لهم بالاستقرار في مكان بعينه؛ فهم اليوم هنا وغدًا يُنفخ في الأبواق وينتقلون إلى مكان آخر. ترتب على ذلك أن يحدث كل شيء في الخفاء ويطويه النسيان، ولا يشعر المرء بالحرج. من ناحية أخرى أحبنا الناس وانتظرونا دائمًا. في أي بلدة يصل إليها فوج عسكري سرعان ما تُعَد الولائم ويعلو الضجيج. ما إن يستحم الضباط ويتزينون

---

(١) سفر التكوين ٢: ١٨.

(٢) استخدم مصطلح الحب الحر منذ القرن التاسع عشر للتعريف بحركة اجتماعية ترفض الزواج، وكان ينظر إليه بوصفه شكلًا من أشكال العبودية الاجتماعية، خاصة للمرأة.

(٣) أحد أهم الشعراء الروس بعد وفاة ألكسندر بوشكين.

ويخرجون للتنزه حتى تفتح الآنسات الفاتنات نوافذهن الصغيرة، ويعلو صوت البيانو والغناء. كانت هذه هي الأغنية المفضلة حينها:

كم يبدو جميلًا يا ماما!

إنه ضيفنا الجسور

بزيه الرسمي الذهبي

ووجنتيه المتقدتين

يا إلهي!

يا إلهي!

متى يصير لي؟

ما إن يسمع الواحد منا بالطبع أغنية كهذه من إحدى النوافذ حتى يلقي نظرة إليها، ولن يفعل ذلك عبثًا، في مساء اليوم ذاته، سرعان ما يرسل الضباط جنود المراسلة إلى البيت، وبعدها تذهب الخادمات إلى السادة الضباط برسائلهن أيضًا. لم تكن هؤلاء الخدمات من نوع خادمات اليوم المغناجات، ولكن من الأقنان الذين هم أكثر مخلوقات الله إيثارًا. لم يكن الأمر يُكلِّفنا نحن الضباط شيئًا غالبًا سوى القبلات. هكذا تبدأ الانتصارات في قصص الحب بإرسال الرسل، وتنتهي بالمرسِلين أنفسهم، حتى إن الممثل جريبجوريف غنى في إحدى مسرحياته الهزلية مقطعًا غنائيًّا يقول:

إذا أردت أن تكسب قلب سيدة

غازل خادمتها أولا

في عصر القنانة لم يُدعَوا قَطُّ باسم «مدبرة منزل»، بل ببساطة «خادمة».

يمكنكم بالطبع أن تدركوا كيف أفسدنا هذا التدليل الجهنمي من قِبل النساء نحن العسكريين! حتى بالانتقال من روسيا العظمى إلى أوكرانيا وجدنا الأمر ذاته. ذهبنا إلى بولندا، ووجدنا الأمر هناك أقوى من هنا. الفرق الوحيد هو أن البولنديات حاذقات، وسرعان ما بدأن في الزواج منا. قال لنا قائدنا: «احذروا أيها السادة». ولقد نجَّاني الله فعلًا، ولم أتزوج. وقع أحدهم في العشق بهذه الطريقة حتى هرع ليتقدم بالزواج من محبوبته، لكنه وجد حماته المستقبلية بمفردها في المنزل، ولحسن الحظ انجرف بشدة معها إلى درجة أنه لم يطلب منها يد ابنتها. ولا يتفاجأ المرء عندما يسمع عن النجاحات التي تحققت في هذا المجال، لأن الشباب يملأون المكان هناك، والعاطفة الجياشة في كل مكان. لم يكن نمط حياتنا الآن هو السائد وسط الطبقات المثقفة في ذلك الوقت. في الطبقات الأدنى بالطبع كانوا يصرخون اعتراضًا، ولكن في الطبقات المثقفة تغلبت لهفة العشق ببساطة، كما أن المظاهر مثَّلت الكثير لهذه الطبقة. لقد اعترفت الفتيات والسيدات المتزوجات على السواء بأنهن يشعرن بما يمكن أن نطلق عليه «فقدان الإرادة المندفع» عند رؤيتهن للزي العسكري. لكننا عرفنا أن ذكر البط قد مُنِح مرآة على جناحيه حتى تستطيع البطة أن تنظر إلى نفسها فيها متى شاءت. لم نمنعهن من الإعجاب بأنفسهن إذن.

قليل من العسكريين من تزوج، بسبب قلة الراتب والشعور بالملل.

تزوج وستجد أنك ستجرجر نفسك خلف جواد، وزوجتك خلف بقرة، وأطفالك خلف العجول، وخدمك خلف الكلاب. ولماذا يُقْدِمون على الزواج إذا كان العزاب لم يختبروا - والحمد لله - أي شعور بالوحدة؟ لقد وصل الأمر مع من هم أكثر جاذبية من الآخرين، أو من بإمكانهم الغناء أو الرسم أو التحدث بالفرنسية، إلى ألا يعرفوا إلى أين يذهبون من كثرة الأماكن والزيارات المتاحة أمامهم. وصل الأمر إلى حد أن نالوا ما هو أكثر من المداعبة والملاطفة؛ لقد حصلوا على بعض الحلي الثمينة جدًّا بطريقة لا يمكنهم بها رفضها. بل إن الأمر وصل إلى حد أنه في بعض الحالات تنفتح النفس المسكينة أمامهم كلية بعد لقاء واحد مثل كنز مخبوء يُفتح بكلمة سحرية واحدة، وبعدها يتوجب على المرء أن يأخذ كل ما تعطيه إياه هذه المرأة؛ في البداية ترجوه جاثية على ركبتيها ثم يأتي دور الاستياء فالبكاء. لا يزال معي إحدى هذه الحلي في يدي حتى الآن.

(يبسط لنا الراوي حينها يده فنرى في إحدى أصابعه الممتلئة القوية خاتمًا ذهبيًّا قديمًا مطليًّا بالمينا مُطعَّمًا بقطعة ألماظ كبيرة. ثم يواصل حكايته).

في هذا الوقت لم يكن هناك أدنى أثر للسلوك الشائن الذي نجده منتشرًا اليوم متمثلًا في استغلال الرجال ماديًّا. فأين كان من الممكن أن يُنفق هذا المال؟ وعلى ماذا؟ في ذلك الوقت كانت هناك وفرة كبيرة في المال القادم من ملكيات الأرض، ومن ثم سادت البساطة. لقد عاش الناس ببساطة فائقة، خاصة في المدن الصغيرة. لم تكن

هناك تلك النوادي الموجودة اليوم، ولا باقات الزهور التي يجب أن يدفع المرء من أجلها الكثير من المال ثم تُلقى بعيدًا. ارتدى الناس ثيابًا جميلة لكنها بسيطة؛ فإما أن يرتدوا ثيابًا من قماش مارسيلين ناعم أو قماشًا رقيقًا ملونًا، بل وفي كثير من الأحيان لم يزدروا حتى الأقمشة القطنية أو الكتانية الملونة الرخيصة. رغبة في الاقتصاد، ارتدت كثير من السيدات المآزر والكتّافات من مختلف الأشكال والأنواع، وبدا كل ذلك جميلًا وأنيقًا ولائقًا على الكثيرات منهن. حتى النزهات واللقاءات الغرامية جرت بطريقة مختلفة تمامًا عنها اليوم. لم تكن الدعاوى تُوجَّه مثلًا للسيدات للذهاب إلى الحانات الموجودة في ضواحي المدن حيث يسلخون جلدك ويأخذون منك عشرة أضعاف المال الذي يجب أن تدفعه. عافانا الله! في هذا الوقت، كانت وجوه الفتيات أو السيدات تحمر خجلًا من مجرد التفكير في فكرة كهذه، ولا يكون هناك أي سبب للذهاب إلى مثل هذه الأماكن التي يبدو السير فيها وسط مجموعة من الخدم كالسير وسط قوات جيش مسلحة! يمكنكم أن تروا بأنفسكم، وأنتم تمسكون بأيدي زوجاتكم، كيف يُكشِّر مثل هؤلاء الأوغاد عن أنيابهم من خلفكم، لأن أعينهم الذليلة لا ترى أي اختلاف بين فتاة كريمة وامرأة مدفوعة بقوى الهوى وأي سيدة من أمستردام. حتى إذا سلكت امرأة كريمة بمزيد من الاتضاع يحكمون عليها أيضًا بدرجة أدنى قائلين: «لن يكون الربح كبيرًا هنا. إذا نظرت إلى السيدة فستعرف حجم الربح».

الآن لا يلتفت الناس إلى ذلك، ولكن مثل هذه السيدة كانت لتستاء

لو عُرِض عليها أفضل أشكال العزلة في هذا المكان.

قديمًا تمتع الناس بذوق رفيع، ونشد الجميع صقل كل شيء ليصير على أفضل حال، ولم يفعلوا ذلك بالتبجح بأي شكل، بل بالبساطة الأنيقة بحيث لا يشي أي شيء بالوضاعة أو التفاهة. تعوَّد العشاق على التمشي أغلب الوقت؛ فيتنزهون مثلًا حول حدود المدينة، ويقطفون نبتات القنطريون، أو يصطادون سمكة على ضفة النهر تحت الكرمة، أو يفعلون شيئًا آخر بسيطًا وبريئًا من هذا النوع. كانت السيدة تأتي قديمًا مع عبدتها، بينما يجلس المرء على إحدى الحواف في انتظارها. تترك السيدة عبدتها بالطبع في مكان قريب حتى يمكنك أن تتجول مع السيدة في حقل الجوادار النقي. يجد المرء من حوله إذن السنابل والسماء والحشرات المختلفة تزحف على سيقان النباتات وعلى الأرض. تجد معك كائنًا في ريعان الشباب، لا يزال غالبًا في المرحلة البريئة ذاتها التي كان فيها إبان الدراسة؛ فتاة لا تعرف ماذا يمكن أن تقول لرجل عسكري وتسألك كما لو أنك معلم علوم طبيعية: «ماذا تعتقد، أهذا خنفس أم خنفساء؟»، ولكن ما جدوى التفكير فيما إذا كانت هذه الحشرة خنفسًا أم خنفساء حينما تتكئ على ذراعك فتاة تبدو كملاك نقي طاهر؟ تدور الرؤوس ويبدو أن لا أحد مذنب في هذا الأمر ولا يستطيع أحد أن يُقدِّم حسابًا عن فعلته لأن قدميك لا تحملانك، ويبدو لك أن الحقل ذاته الذي أنتما واقفان فيه، حيث أشجار البلوط والقيقب التي تحمل حوريات الغابة المستغرقات في التفكير، يدور بك. لا شيء في هذا العالم كله يمكن أن يُقارن بحالة النعيم هذه. إنها سعادة مقدسة رائقة.

(وهنا استغرق الراوي تمامًا في تذكُّر هذه اللحظات السامية، حتى إنه صمت لبرهة. في خلال هذه اللحظات قال أحدهم بهدوء إنه حينما يتعلق الأمر بحوريات الغابة يبدأ الأمر دائمًا بصورة جيدة، ولكن ينتهي إلى عواقب وخيمة).

أجابه الراوي: وماذا يمكن أن ينتظر المرء من ذلك؟ لكنني أتحدث هنا عنا نحن الرجال العسكريين فقط؛ لقد تعودنا على أن نحظى بهذا الاهتمام من النساء والتضحيات التي يبذلنها من أجلنا ببساطة ومن دون تفكير، كهدية من فينوس للزهرة، وفي الآن ذاته لم نطلب قَطُّ أي استدامة في العلاقة ولا وعدنا بها، بل جئنا وأخذنا ما قُدِّم إلينا. فجأة يحدث تغيير عنيف! تصدر الأوامر لنترك بولندا ونتوجه إلى مولدوفا. أشاد الرجال البولنديون لنا بهذا القطاع الروماني كثيرًا. قالوا لنا: «السيدات المولدوفيات هناك جميلات جمال باهر لا مثيل له في العالم كله. لا يواجه المرء أي مشكلة في نيل حبهن لأنهن متوهجات بدرجة مريعة».

حسنًا، نحن سعداء جدًّا بالطبع بهذا الكنز!

تحمس الشباب جدًّا. قبل الرحيل بذل كل منهم أقصى جهده لاقتناء مختلف أنواع القفازات وزيوت الشعر والعطور من وارسو ليذهبوا بها لملاقاة السيدات هناك، حتى يدركن جيدًا أننا لسنا أجلافًا لا نفقه شيئًا.

نفخوا في الأبواق ودقوا على الدفوف وخرجوا يغنون مرحين:

نترك النساء خلفنا

نترك الأصدقاء خلفنا

نسير بصخب

وسط صفير الرصاص وصلصلة السيوف

انتظرنا أن ننعم بنِعم لا يعلمها أحد سوى الله، لكن الأمر انتهى بكارثة لم يتخيلها أحد.

* * *

الفصل الرابع

توجهنا إلى هناك بكل حرارتنا الروسية لأن المولدوفيين جميعهم أرثوذكسيون، لكن البلد ذاته لم يَرُق لنا من النظرة الأولى. الأراضي المنخفضة والذرة والبطيخ والكمثرى رائعون، ولكن الطقس غير صحي. لقد مرض الكثيرون منا ونحن لا نزال في الطريق، وعلاوة على ذلك لم نجد ودًّا ولا عرفانًا في أي مكان توجهنا إليه.

كان علينا أن ندفع من أجل كل شيء، وإذا أخذت أي شيء من دون مال، مهما كان تافهًا، من أحد المولدوفيين، تجد هذا القذر يصرخ كما لو أنك انتزعت طفله منه. تجد نفسك مجبرًا على إعادة الشيء إلى مكانه وتقول له: «خذ تفاهاتك ولا تصرخ»، فيختبئ منك ويمضي بعيدًا ولا يمكنك أن تجد هذا الشيطان الأشعث في أي مكان. في مرة أخرى قد تحتاج إلى من يدلك على الطريق ولا تجد أحدًا، حيث يتوارى الجميع بعيدًا عنك. إنهم أجبن الناس في هذا العالم، ولم نجد في طبقاتهم الدنيا امرأة واحدة جميلة. لا تجد لديهم سوى فتيات قذرات وأبشع المسنات.

نقول في أنفسنا: «ربما أن الأمر كذلك عندهم في الإقطاعيات الجانبية فقط حيث يبدو الناس دائمًا أسوأ من غيرهم، ولكن عندما نصل إلى المدينة سوف يتغير كل شيء. من غير المعقول أن يؤكد البولنديون لنا هكذا من دون أي أساس على أننا سوف نجد هنا سيدات فاتنات. أين هؤلاء السيدات؟». سوف نرى.

وصلنا إلى المدينة، ووجدنا الأمر ذاته حيث يتوجب على المرء أن يدفع من أجل كل شيء.

فيما يتعلق بجمال السيدات قال لنا البولنديون الحقيقة. لقد أُعجبنا جدًّا بالسيدات والفتيات هناك. لقد اتسمن برشاقة ومرونة شديدتين بدرجة تفوق حتى البولنديات، لكن البولنديات كما تعرفون يتسمن بأفواه أكبر قليلًا؛ الأمر الذي يلائم ذوقي، كما أنهن يتسمن بتقلب شديد في شخصياتهن. إذا أردت أن تصل إلى المرحلة التي تقول فيها للمولدوفية كلمات ميتسكيفيتش[1]: «يا حبيبتي، ما حاجتنا إلى الكلمات!»، يجب أن تنحني لها طويلًا أولًا. الأمر في مولدوفا مختلف تمامًا عن هنا؛ المرء يجد اليهودي هناك منخرطًا في كل شيء. نعم، هناك تجد اليهودي البسيط، وفي غيابه لن تجد أي شيء شعري في الحياة. يأتي إليك اليهودي في الفندق ويسألك: ألا تُثقلك الوحدة؟ ألم تشتم رائحة سيدة ما؟

تقول له إنك لست في حاجة إلى خدماته لأن قلبك مشغول بهذه السيدة مثلًا التي رأيتها، ولنقل مثلًا في أحد المنازل تحت سقيفة حريرية

(١) شاعر بولندي.

في الشرفة الخارجية. ويجيبك اليهودي: «منكن[1]». حينها ستصرخ بصورة لا إرادية: «ماذا تقصد بمنكن؟». يجيبك بأنه منكن أن يدبر لك صحبة هذه السيدة، ويقترح عليك المكان الذي يجب أن تذهب إليه خارج المدينة، والمقهى المحدد الذي سوف تذهب إليه بصحبتك لتشربا القهوة معًا. في البداية ظننا أن هذا محض كذب، ولكن اتضح أنه ليس كذبًا. من ناحيتنا نحن الرجال ليست هناك أي عقبات، ولقد راقبنا الأمر من حولنا واعتدنا على ذلك، وصرنا مستعدين لشرب القهوة مع أي سيدة في أي مقهى في ضواحي المدينة.

أخبرته عن سيدة جميلة جدًّا رأيتها في الشرفة. قال اليهودي إنها ثرية، وتزوجت منذ عام واحد.

كما يتضح أمامكم، بدا الأمر بطريقة ما جيدًا جدًّا إلى درجة غير قابلة للتصديق. سألت عنها مرة أخرى وجاءني رد مماثل مفاده أنها ثرية وتزوجت منذ عام واحد، وأنها يمكن أن تخرج معي إلى المقهى. سألت اليهودي:

- إنك لا تكذب عليَّ، أليس كذلك؟

- ولماذا أكذب عليك؟ سوف أتعامل معك بأمانة. امكث مساء هذا اليوم في منزلك، وما إن يحل الظلام ستأتيك مربيتها.

- وما حاجتي بحق الجحيم إلى مربيتها؟

- يستحيل أن يتم الأمر بصورة مختلفة. هكذا يتم الأمر هنا.

---

(١) ينطق اليهودي كلمة «ممكن» بطريقة خاطئة بالروسية.

- ليس في الإمكان فعل شيء آخر إذن ما دام أن هذه هي الطريقة التي يتم بها الأمر هنا. لكل مقام مقال. حسنًا، قُل لمربيتها إنني سوف أمكث في المنزل في انتظارها.

- لا تشعل أي نور عندك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لماذا؟

- حتى يظن الناس أن لا أحد في المنزل.

هززت كتفَي موافقًا.

- حسنًا، لن أوقده.

في النهاية طلب اليهودي عملة ذهبية[1] مكافأة على خدماته.

- أتريد عملة ذهبية؟! لم تفعل شيئًا بعد وتريد عملة ذهبية؟! سوف يكون هذا طمعًا.

قلت في نفسي إنه عليَّ أن أنهك هذا الوغد أولًا قبل أن أعطيه المال.

يبتسم ويقول:

- لا، سيكون الوقت قد تأخر على دفع المال بعد أن تلتقي بها بالفعل. يُقال إن المرء لا يمكنه أن يثق بالعسكريين.

- حسنًا، لا تتحدث عن العسكريين. هذا ليس من شأنك، وإلا حطمت وجهك وأنفك.

---

(١) تشيرفونيتس: عملة ذهبية تُقدَّر بثلاثة روبلات، وأحيانًا تستخدم في الحوار بالعامية لتشير إلى خمسة أو عشرة روبلات.

بالرغم من ذلك أعطيته العملة الذهبية التي أرادها ولعنته واستدعيت عبدي الأمين.

أعطيت جندي المراسلة الخاص بي عشرين كوبيكًا وقلت له:

- اذهب حيثما تشاء واثمل تمامًا. المهم أن تغيب عن المنزل هذا المساء.

كما تلاحظون كل شيء يكلفك المزيد من المال. لم يكن الأمر هناك مثل جمع السنابل في الحديقة سابقًا أو ما شابه. ربما سيتوجب عليَّ أيضًا أن أدفع للمربية.

حل المساء، وانصرف الرفاق كلهم إلى المقاهي المختلفة. هناك توجد الآنسات أيضًا، وبعضهن مثير للفضول حقًّا. كذبت على الرفاق وتظاهرت بأن أسناني تؤلمني وأنني سوف أذهب إلى المستوصف لآخذ من المسعف هناك بعض القطرات لتريح ألم أسناني أو حتى لأنتزع السن تمامًا. سرت بسرعة حول منزلي، ثم انسللت إليه خفية. أغلقت الباب وجلست بالقرب من النافذة من دون إشعال النور. أجلس هناك كالأحمق منتظرًا. أشعر بدقات قلبي والنبض في أذني، ويبدأ الشك في التسلل إليَّ وأتساءل عما إذا كان اليهودي قد خدعني. أقول ربما أخبرني عن هذه المربية حتى ينتزع عملة ذهبية لنفسه وحسب. ربما هو يتباهى الآن أمام بقية رفاقه اليهود بالطريقة التي خدع بها ضابطًا، وجميعهم ينفجرون ضحكًا. ولماذا تأتي مربية إلى هنا، وماذا يمكن أن تفعل هنا؟ وجدت نفسي في موقف سيئ حتى إني قررت الانتظار حتى أعد إلى مائة، ثم اللحاق برفاقي.

الفصل الخامس

فجأة، ولم أكن قد وصلت في العد إلى رقم خمسين، سمعت طرقًا خفيفًا على الباب، وأحدهم يتسلل، وهسهسة قريبة. في هذا الوقت كانت النساء يرتدين معاطف طويلة من طراز شالون تصدر هذا الصوت.

في غياب ضوء الشموع، والظلام المخيم على المكان، لم أتبين بوضوح شكل الشخص القادم.

استطعت عن طريق ضوء الشارع وحسب أن أعرف أن ضيفتي لا بد وأنها عجوز كهلة تمامًا، ومع ذلك غطت وجهها بخمار من أجل الحذر. دخلت وهمست:

- أين أنت؟

- لا تخافي. يمكنكِ أن تتحدثي بصوت أعلى فلا أحد هنا، وأنا في انتظارك بحسب الاتفاق. أخبريني: متى سوف تذهب سيدتكِ إلى المقهى معي؟

أكملت هامسة أيضًا:

- الأمر يعتمد عليك.

- أنا مستعد دائمًا.

- بماذا تأمرني أن أخبرها؟

- أخبريها أني مشدوه بها وواقع في غرامها، وأعاني بسببها. عندما يأتي الوقت المناسب سآتي إلى المكان المحدد، ولنقل مثلًا غدًا مساءً.

- حسنًا، يمكنها أن تذهب غدًا.

تظنون بالطبع أنه كان عليها أن تنصرف بعد قول ذلك، ولكن لا؛ ظلت واقفة.

- ماذا؟

من الواضح أنه توجب عليَّ أن أدفع عملة ذهبية أخرى. كنت في حاجة إلى الاستفادة بها من أجلي، ولكن ليس في الإمكان فعل شيء. أعطيها العملة الذهبية، وتسألني فجأة:

- هل توافق على أن ترسل ثلاثمائة عملة ذهبية معي حالًا إلى سيدتي؟

- ماااااااذا؟

تكرر بهدوء «ثلاثمائة عملة ذهبية»، وتهمس لي قائلة إنه بالرغم من أن زوج سيدتها شديد الثراء فإنه غير مخلص لها، ويبدد المال على كونتيسة إيطالية، وقد ترك سيدتها وحدها تمامًا، حتى إنها اضطرت إلى أن تشتري على حسابها خزانة ثياب من باريس، لأنها لا تريد أن تبدو أسوأ من الأخريات.

أنتم تفهمونني بالطبع؛ الشيطان وحده يعلم ما هذا! ثلاثمائة عملة ذهبية؛ لا أكثر ولا أقل! هذا يعني ألف روبل، وهذا المبلغ يساوي راتب عقيد لعام كامل، كما يساوي ثمن مليون طلقة! كيف أمكنها أن تتقدم إلى ضابط بطلب كهذا؟ ليست لديَّ مثل هذه الكمية من العملات الذهبية، لكن عليَّ أن أحافظ على شرفي، ومن ثم قلت لها سريعًا:

- المال بالنسبة لنا نحن الروس لا يساوي شيئًا. نحن لا نتكلم عن المال، ولكن من يستطيع أن يضمن لي أنكِ ستعطينها هذا المبلغ ولن تأخذيه لنفسكِ؟

- سأُسلِّم المبلغ لها لا محالة.

- لا. المال أمر غير مهم، لكنني لا أرغب في أن تضللني. عندما ألتقي بها يمكنني أن أعطيها ما هو أكثر من ذلك.

استاءت العجوز وبدأت تعظني:

- ماذا تقول؟ هل تظن أن بإمكان السيدة أن تأخذ منك المال بنفسها؟

- أنا لا أصدقك.

- هكذا يجري الأمر، وإذا لم تدفع لي فلن تراها.

- حسنًا، لا أريد إذن.

لقد أزعجتني للغاية إلى حد أني شعرت بإنهاك جسدي، وسعدت جدًّا عندما ابتعدت عني، عليها اللعنة.

ذهبت إلى أصدقائي في المقهى، وشربت كثيرًا وقضيت وقتي

هناك كالمعتاد كما يليق بسيد أنيق، وفي اليوم التالي خرجت لأتنزه بالقرب من منزل السيدة الجميلة، ورأيت كيف تجلس هذه الفاتنة عند النافذة بفستانها المخملي الأخضر المزين على الصدر بوردتين، ذي الياقة المنخفضة الذي يكشف عن ذراعيها العاريتين من كمين مفتوحين مطرزين بخيط ذهبي، وآه من جسدها! لونه وردي مذهل يلوح من الفستان المخملي الأخضر كبطيخة تبرز من قشرتها.

لم أحتمل أكثر من ذلك وقفزت صوب النافذة وقلت:

- لقد عذَّبتِني عذابًا لا يجب على امرأة ذات قلب مثلكِ أن تُعذِّبه لأحد. تقت وانتظرت لحظات من السعادة أراكِ فيها، ولكن بدلًا منكِ جاءتني هذه العجوز الجشعة التي أثارت شكوكي، ومن واجبي كرجل أمين أن أُحذِّركِ منها، لأنها تُشوِّه اسمكِ.

لم تغضب السيدة. أخبرتها أن العجوز طلبت مالًا، ولم ترد على ذلك إلا بابتسامة. آه منها! يا إلهي عندما فتحت فمها بدت أسنانها كاللؤلؤ وسط الشعاب المرجانية؛ كل شيء فيها ساحر، ولكن بدا كما لو أنها حمقاء بعض الشيء.

- حسنًا، سوف أرسل إليك المربية مجددًا.

- من؟ المربية ذاتها؟

- نعم، سوف تأتيك الليلة مجددًا.

- أرجوكِ لا ترسليها. ربما لا تدركين أن تمثيل هذه العجوز الجشعة لكِ لا يجلب لكِ الاحترام اللازم.

فجأة أسقطت السيدة منديلًا من النافذة، وعندما انحنيت لألتقطه، انحنت هي أيضًا حتى لاح أمامي هذا الجزء اللعين من الفستان الذي يحتضن ثدييها كقارب أطفال ورقي، وهمست:

- سوف أتحدث معها وستعاملك بقدر أكبر من الطيبة.

قالت ذلك وأغلقت النافذة.

«سوف تأتيك الليلة مجددًا» - «سآمرها أن تعاملك بقدر أكبر من الطيبة». في كل الأحوال هذه ليست حماقة، بل نوع من الجرأة. كل هذا في مثل هذه الشابة الفاتنة!

من الذي يمكنه ألا ينجذب صوب مثل هذه المرأة؟ تبدو كطفلة، وبالرغم من ذلك تعرف كل شيء وتدير كل شيء بنفسها، وهي من أرسلت لي هذه الشيطانة العجوز، وسوف ترسلها مجددًا.

تحليت بالصبر. ليس لديَّ شيء لأفعله سوى الانتظار حتى يتم الأمر.

انتظرت الغسق، وتواريت مجددًا، وانتظرت في الظلام. أسمع مجددًا هذه الهسهسة للمعطف الصوفي من طراز شالون، وأرى العجوز من خلف الخمار. أسألها:

- ما قولكِ؟

تجيبني هامسة:

- السيدة واقعة في غرامك، وترسل إليك هذه الوردة من صدرها.

- أشكريها من أجلي شكرًا كبيرًا، وقولي لها إني أُثمِّن هذه الوردة

جدًّا.

أخذت الوردة وقبَّلتها.

- إنها ليست في حاجة إلى ثلاثمائة قطعة ذهبية، بل مائة وخمسين فقط.

حسنًا، لقد أشفقتْ عليَّ وقدَّمت لي تخفيضًا كبيرًا. لكن يظل عليَّ أن أدفع مائة وخمسين عملة ذهبية! أمر مدهش! لم تكن لدينا في هذه الفترة مثل هذه المبالغ، لأننا عندما تركنا بولندا كنا قلقين، واشترينا لأنفسنا أغراضًا ضرورية وغير ضرورية على السواء، وأمرنا الحائكين بحياكة ثياب جديدة لنا حتى نبدو هنا في أفضل صورة، ولم نفكر أن الأمور ستجري هنا بهذه الطريقة أبدًا. قلت لها:

- اشكري سيدتكِ باسمي، لكني لا أريد أن أخرج معها.

- لماذا؟

- أتسألينني لماذا؟ لا أريد، هكذا ببساطة.

- وهل أنت فقير؟ أنتم جميعًا أثرياء. أم أن جمال السيدة لا يرضيك؟

- لست فقيرًا، وليس بيننا فقراء، وسيدتكِ فاتنة، لكننا لم نعتد على التعامل بهذه الطريقة.

- كيف تتعاملون إذن في مثل هذه الأمور؟

- ليس هذا من شأنكِ.

- لا، قُل لي الطريقة التي اعتدتم التعامل بها، فربما نستطيع أن

نتعامل بها.

حينها نهضت وتصنعت الإباء وقلت:

- لقد تعودنا على أن يحمل ذكر البط مرآة على جناحيه بحيث تجري البطة بنفسها خلفه لتنظر إلى نفسها في مرآته.

انفجرتْ فجأة في الضحك.

- لا شيء هنا مضحك.

- لا، لا، لا. إنه مضحك جدًّا.

وركضت سريعًا، بل كادت أن تطير من سرعتها.

غضبت مجددًا، وذهبت إلى المقهى وشربت ثانية.

الخمر رخيص في مولدوفا. صحيح إنه حمضي قليلًا، ولكن يمكن شربه بسهولة.

* * *

الفصل السادس

في صباح اليوم التالي أيها السادة، وأنا لا أزال مستلقيًا على الفراش، جاءني فجأة اليهودي ذاته الذي ورَّطني في هذا الموقف الأحمق ليطلب مني عملة ذهبية لنفسه.

- ما الذي فعلتَه لتستحق عملة ذهبية أخرى يا عزيزي؟

- أنت بنفسك وعدتني بها.

أنا أتذكر أني وعدته بالفعل بعملة ذهبية أخرى، ولكن بعد أن ألتقي بالسيدة. أقول له ذلك فيجيبني:

- لقد التقيت بها فعلًا مرتين.

- نعم، عند النافذة، ولكن هذا غير كافٍ.

- لا، لقد جاءتك مرتين.

- جاءتني هنا عجوز لعينة، لا السيدة.

- لا، السيدة هي من جاءتك.

- لا تكذب أيها اليهودي. هناك من يُضرب لقاء كذبات كهذه.

- لا، أنا لا أكذب. هي من جاءتك لا امرأة عجوز.

حافظت على كرامتي، لكن هذا الأمر أوشك أن يصل بي إلى نقطة الغليان حقًّا. شعرت بالحزن والمرارة حتى إني أمسكت باليهودي وضربته ببشاعة، وذهبت وشربت خمرًا مولدوفية حتى فقدت وعيي من الثمالة. لكن حتى في مثل هذا الوضع لا يمكنني أن أنسى أبدًا أن السيدة كانت في متناول يدي، ولم أتعرف عليها، وتركتها تفلت من بين يدي كغراب. لا عجب إذن أن بدا لي هذا الكائن الملفوف بمعطف من طراز شالون مريبًا. باختصار شعرت بالألم والحزن، لكني شعرت بالخزي أيضًا إلى درجة أني شعرت بالأرض تبتلعني. كان الكنز بين يدي، ولم أستطع أن آخذه. الآن أبدو كأحمق.

لكن الأمر الذي بعث فيَّ بعض العزاء هو أن حوادث شبيهة حدثت مع بعض رفاقي الضباط، ولم نفعل شيئًا جميعًا سوى أن شربنا بحزن، وأكلنا البطيخ مع فتيات المقاهي، وقررنا أن نعاقب السيدات الحقيقيات بالازدراء.

انتهى أوان النجاحات التي حققناها مع الغزل البريء وسط الحقول ونباتات القنطريون. شعرنا بالملل من دون نساء من أوساط لائقة مثقفة والاكتفاء بفتيات المقاهي، ولكن قادتنا الضباط شجعونا. قالوا لنا:

- من غير المعقول ألا يكون هناك حصاد إذا لم ينضج التفاح في إحدى الحدائق. تشجعوا أيها الإخوة.

ابتهجنا بأننا سرعان ما سوف نفارق هذه المدينة وسنقيم في الحقول. لا بد أن السيدات من مُلَّاك الأراضي هناك يختلفن تمامًا عن سيدات المدن، ولا يمكن أن يتسمن بهذا الجشع. هذا ما اعتقدناه، ولم

نتصور أن ما ينتظرنا هناك أسوأ وأكثر بعثًا للحزن. لم يكن بوسعنا التنبؤ بما ستفعله بنا بساطتهم الريفية! حل يوم ممطر، ونفخنا في الأبواق وغنينا أغنية «الغراب الأسود»، وخرجنا إلى الهواء الطلق؛ فربما تنتعش نفوسنا مجددًا بالقنطريون الأزرق.

* * *

الفصل السابع

بدت إقامتنا في هذا المكان الجديد الذي عينوه لنا مؤقتة تمامًا، فالأمر في مولدوفا يجري على الطريقة الأجنبية، فليس لديهم مثل هذه القرى الكبيرة التي لدينا، بل حقول وإقطاعيات صغيرة منفصلة. تصارع الضباط من أجل التقرب من مزرعة خوليان، فقد عاش فيها السيد الإقطاعي بنفسه أو مالك الأراضي، ويُدعى خوليان. كان متزوجًا. قالوا عن زوجته إنها فاتنة وقالوا عنه إنه تاجر رائع حيث يمكن للمرء أن ينال منه كل شيء بالمال؛ يمكن أن يوفر لنا الطعام والخمر وما إلى ذلك. أقام هنا بعض رفاقنا الضباط قبلنا، والتقينا بأمين الصندوق الخاص بهم على الطريق، وهو الذي تولى أمر الإيصالات مع خوليان. سألناه: من أي نوع هو؟ لكنه كان أحد شعراء الفوج العسكري، وأحب أن يجيب دائمًا بصورة شعرية:

- مزرعة جيدة، وسترون بأنفسكم حينما تذهبون إلى هناك أن:

بين الجبال، وبين الحفر

يجلس الطائر خوليان

إنها طريقة حمقاء أن نتحدث عن أمور جدية بطريقة شِعرية. لا يمكنكم أن تحصلوا على أي معلومة مهمة من شخصيات كهذه.

- وهل هناك أي سيدات؟

- هناك سيدات، وهناك عراقيل.

- أهن جميلات؟ فاتنات؟

- نعم، جميلات ولسن مغرورات.

- وهل تم استقبال الضباط هناك بصورة جيدة؟

- أتسألون عن الحال هناك؟ فنيت حياتنا هناك ألمًا!

عليه اللعنة! ما هذه اللغة التي يستخدمها معنا؟ كل حديثه ألغاز. لكننا فهمنا جميعًا أن هذا الوغد ماكر ولا يريد أن يكشف لنا شيئًا.

سيان كنتم تصدقون الهواجس السابقة أو النُّذُر أم لا، الإلحاد الآن هو الصيحة الرائجة، لكنني أصدق الهواجس والنذر السابقة لأني لديَّ أدلة كثيرة على ذلك في حياتي المضطربة، وأقول لكم إني في طريقي إلى هذه الإقطاعية الصغيرة، شعرت بكآبة شديدة كأني ذاهب إلى إعدامي.

يمر الوقت ويقصر الطريق بالطبع، وبينما أنا سائر، مستغرقًا في التفكير، وطأت بحذائي في الوحل. رأى أحد السائرين أمامي شخصًا وصاح:

- خوليان!

تردد الصوت عاليًا وسط الصفوف، ولسبب ما ارتجفت، لكني

رشمت علامة الصليب، ونظرت جيدًا لأرى أين هو هذا الخوليان اللعين.

إلا أن علامة الصليب لم تُنحِّ عني الكآبة. شعرت في قلبي بإنهاك كالذي شعر به الشاب يوناثان حينما رأى قطر العسل في الحقل[1]. كان من الأفضل لو لم يذهب إلى هناك، ومن ثم لم يكن الشاب البائس ليقول: «لقد تذوقت قليلًا من العسل، وها أنا أموت من أجل ذلك».

رأينا فعلًا مزرعة خوليان أمامنا، وكان موقعها بين الجبال من ناحية والحفر من الناحية الأخرى؛ أي بين نوع من التلال الجليدية والمستنقعات القبيحة.

الانطباع الأول الذي تركته فيَّ الإقطاعية انطباع مقزز للغاية.

رأيت هناك فعلًا حفرًا حقيقية فارغة بدت كالمقابر، والله وحده يعلم أي شياطين حفرتها ولماذا، لكنها عميقة جدًّا. الله وحده يعلم ما إذا كانوا يُخرِجون منها الطين في زمن ما، أم أن الأمر كما يقول البعض إن الطين هنا قد استُخدم لأغراض علاجية، وقد لطخ به الرومان أنفسهم. لكن المكان بصورة عامة كئيب وغريب للغاية.

تلوح للأبصار بعض الأيكات المتناثرة هنا وهناك، لكنها تبدو كمقابر صغيرة. التربة هنا رطبة، ولا بد أن يفترض المرء أنها مُشبَّعة برطوبة غير صحية. المكان هنا بمثابة عش حقيقي للحمى المولدوفية التي يموت منها الناس من فرط العرق المولدوفي.

---

(١) إشارة إلى قصة وردت في سفر صموئيل الأول إصحاح ١٤ من العهد القديم.

عندما اقتربنا من المكان في المساء توهجت السماء بلون أحمر، وأحاط لون أزرق بالأرض الخضراء، كما لو أن قماشة زرقاء قد انبسطت فوقها، وكان هذا هو الضباب. هنا لا زهور ولا قنطريون بل تظهر فقط جذور ناتئة متوجة بزهور صفراء تبدو كالأباريق، لكنها سامة؛ ما إن تشم الأنف رائحتها حتى تتورم. ما أدهشنا أيضًا هو كثرة طيور مالك الحزين، وكأنهم قد جمعوها هنا من العالم كله؛ بعضها يطير، والآخر يقف على ساق واحدة في المياه. لا أتحمل وجود عدد كبير من هذا الطائر الفرعوني؛ ففيه شيء يُذكِّرني بعمليات الإعدام المصرية[1]. إقطاعية خوليان كبيرة جدًّا، ولكن الله وحده يعلم ما إذا كانت إقطاعية سيئة أم جيدة. احتوت الإقطاعية على بنايات كثيرة مختلفة، ولكن بدا كما لو أن كل شيء فيها قد تناثر بين الجبال والحفر. لا يمكن للمرء تمييز بناية عن الأخرى، فهذه في حفرة، وهذه في حفرة أخرى، وبينهما رابية من الطين. بدا الأمر كما لو أنهم أرادوا تنفيذ عمل سري في الخفاء. الاحتمال الأكبر هو أنهم يُزوِّرون هنا أموالنا الروسية. بيت السيد هنا وضيع وقبيح؛ مقشَّر، ومدخنته عالية، وضيق من الداخل، لكنه كبير - والحق يُقال - فهو يتضمن ست عشرة غرفة. يبدو من الخارج كمحطات عربات البريد عندنا في روسيا التي شيَّدها الراحل كلاينميخيل[2] على

(١) يستخدم هنا ليسكوف أسلوبًا لغويًّا ملتبسًا، حيث إن كلمة فرعون استُخدمت في العامية الروسية قديمًا لتشير إلى الشرطة، كما أن كلمة «حفرة» استُخدمت في العامية الروسية أيضًا في هذه الفترة بمعنى «سجن».

(٢) جنرال روسي أشرف على ترميم القصر الشتوي بعد حريق ١٨٣٧، وشيَّد أول جسر حجري على نهر النيفا.

الطريق الواسع المؤدي إلى موسكو. يحوي المنزل نضدًا ومكاتب ومسافرين وناظر العزبة وزوجته، والله وحده يعلم كيف لا يزال به مزيد من الغرف. شُيِّد المنزل من دون أي طراز أو نموذج، وبدا كمصنع، حيث تجد الرواق في المنتصف، والنضد في المقدمة، وطاولة البلياردو في الصالة، بينما تتوارى غرف المعيشة كما لو أنها غير موجودة. باختصار يبدو كل شيء في المنزل كما لو أنها محطة بريد أو حانة على الطريق. أُذكِّركم أن الأمر الذي زاد من درجة هذا التشابه هو وجود النضد في المقدمة. هذا أمر جيد بلا شك من أجل راحة السادة الضباط، لكن المنظر يبدو غريبًا، كما أن النضد قد تم صنعه بصورة وضيعة، وحتى لا يتمتع الواحد منا بأي شيء مجاني جرى الأمر على النهج التالي: «كل شيء لدينا في خدمتكم، ولكن عليك أن تتفضل وتدفع ثمنه فورًا». كل شيء نحصل عليه هناك، سواء كان فودكا أو خمرًا محلية أو ما إلى ذلك، يُدوِّنه وغد صغير، يرتدي سترة زرقاء ونسيجًا صوفيًّا أحمر، في دفتر خاص. حتى الطعام كنا ندفع ثمنه. في البداية ظللنا فترة طويلة لا نستطيع التعود على أن ندفع مالًا لقاء ما نتناوله في بيت السيد. يجدر بكم أيضًا أن تعرفوا مهارتهم في الاستيلاء على المال. إنها مهارة غريبة تمامًا. أي سيد عندنا في روسيا أو في بولندا كان ليخجل من الانخراط في مثل هذه التجارة. أما هنا، ومن اليوم الأول، يظهر هذا الوغد، ويدور حول الضباط ويسأل: ألا تودون أن تتناولوا الطعام مع السيد؟

يتحلى الرفاق طبعًا بالبساطة والطيبة، ومن ثم يشكرونه بشدة قائلين:

- جيد جدًّا. يسعدنا أن نتناول معه الطعام.

- أين تأمرون بوضع الطاولة؟ في الصالة أم في الشرفة الخارجية؟ الصالة والشرفة كبيرتان على السواء.

- الأمر سيان يا عزيزي، كما تشاءون.

- لا، لقد أمرني السيد أن أسألكم على المكان الذي تودون أن أضع فيه الطاولة، وأن يكون الأمر بحسب رغبتكم.

- انظروا إلى مدى لطفه! قل لنا إذن ما المكان الأفضل.

- الأفضل في الشرفة.

- بالتأكيد الهواء هناك أنقى.

- والأرضية هناك طينية أيضًا.

- وما ميزة ذلك؟

- إذا انسكب عليها نبيذ أحمر أو شيء آخر يسهل مسحه ولا يترك بقعة.

- صحيح! صحيح!

كما ترون، لقد خططوا لإغراقنا في نوبة سُكْر.

لنفترض حتى أن الخمر لديهم رخيصة، ومن الصحيح أن مذاقها جيد، ولكن هناك أنواعًا غالية.

جاء وقت الغداء. يظهر السيد ويجلس إلى الطاولة، ويبدو في أفضل مظهر، وزوجته معه. خوليان نفسه رجل نحيل وأسمر، ولون

وجهه يبدو كالطين المحروق. يمكننا القول إن وجهه يبدو وتريًّا طينيًّا مخنوقًا، كما لو أن صاحبه مريض. يقول:

- الخمر التي لديَّ هذا العام من نوعية جيدة، أتودون تجربتها؟

- بكل سرور.

يصرخ في الخادم:

- هات للسيد الملازم خمرًا من نوعية كذا.

يجلب الخادم فورًا زجاجة مغلقة، ويظهر فجأة مع طبق الطعام الأخير هذا الخادم الوغد ومعه طبق فارغ، ويدور حول الجميع.

- ما هذا؟

- لتحصيل ثمن الطعام والخمر.

ارتبكنا، خاصة من لم يكن معهم مال منا في هذه اللحظة. بدأنا نهمس لبعضنا خفية.

آه من هذا الوغد الزنجي[1]!

لكن الأمر الذي اعتاد خوليان أن يستخدمه ليصل بنا إلى أشد حالات المرارة لم يكن ذلك بالطبع، بل تمثل في السيدة التي جعلت حياتنا تفنى ألمًا، ويمكنني القول إني فقدت للأبد الشيء الذي كان بالنسبة لي الأعز والأغلى، بل والأقدس.

---

(١) الكلمة المستخدمة في الأصل الروسي للتحقير، لذا استخدمت هنا كلمة «زنجي».

الفصل الثامن

تكونت أسرة سيد المنزل من خوليان نفسه الذي وصفته لكم قليلًا: إنسان نحيل، يبدو كالوتر، ذو قدمين طينيتين، لم يهرم بعد لكنه يتكئ طوال الوقت على عصا لا يتركها للحظة واحدة. يجلس ويضع العصا على ركبتيه. قالوا إنه أصيب في مبارزة، لكني ظننت أنه ربما أراد أن يوقف عربة البريد[1] في مكان ما، وأطلق عليه الساعي النار. تبين بعد ذلك أن الأمر مختلف تمامًا، وانجلى لكن في وقت متأخر. في البداية بدا إنسانًا متحضرًا ومثقفًا، وكانت أظافره طويلة وبيضاء، ويمسك دائمًا منديلًا عشبي اللون. بالنسبة للسيدات لم يبدُ أنه يمكن أن يقدم لهن أي فائدة عدا ثقافته، فقد بدت من مظهره برودة رهيبة نحوهن. أما زوجته فقد بدت ببساطة كملكة في الحكايات الخيالية، وبدا عمرها لا يزيد بحال من الأحوال على اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين عامًا، وهي في ريعان شبابها، ذات حاجبين رقيقين أسودين، رقيقة التكوين، ولاحت أولى بدايات الامتلاء في جسدها في استدارة كتفيها، وهي ترتدي دائمًا ثيابًا فاتنة كوجهها، وغالبًا ما تكون الثياب صفراء شاحبة أو بيضاء، مطرزة بالنقوش، وفي قدميها حذاءان ذهبيان.

---

(١) اشتهرت عربات البريد في روسيا في ذلك الوقت باستخدامها كوسيلة مواصلات أحيانًا لنقل الناس.

بدأت القلوب بالطبع تخفق. كان معنا ضابط دعوناه فوبلاز[1] لأنه يفتن النساء سريعًا جدًّا. اعتاد هذا الضابط أن يمر بالقرب من منزل أي امرأة جميلة ويجلس، ولا يقول سوى ثلاث كلمات: «عيناكِ ملائكيتان فاتنتان»، وينظر إليها، وسرعان ما يبدأ التعارف. أنا ذاتي كنت متيَّمًا بالجمال إلى حد الجنون. بنهاية الغداء أرى اللعاب يسيل من فمه، وعينيه تكادان تنخلعان من محجريهما، حتى إني أقول له:

- أنت تسلك بطريقة غير لائقة.

- لا أستطيع، ولا تزعجني الآن، فأنا أخلع ملابسها الآن في مخيلتي.

قلت له: «لا تكن غبيًّا». لكني وجدت نفسي فجأة قد استغرقت في التخيل ذاته، ولاحظت فجأة أن الجميع قد فغروا أفواههم واللعاب يسيل منها، وأعينهم تكاد تقفز من محاجرها.

بعد الغداء اقترح خوليان أن نلعب الورق. ها قد بدأت أعراض الحمى المولدوفية اللعينة! وافق الجميع عدا فوبلاز. ظل يتحدث مع السيدة حتى المساء. في المساء نسأله:

- ما رأيك فيها؟ أهي مسلية؟

ينفجر في الضحك ويقول:

- في رأيي، لا بد أن أمها أو أباها كان مجنونًا بعض الشيء، وهي

---

(١) يعود الاسم لبطل رواية فرنسية شهيرة: «مغامرات الفارس فوبلاز» من تأليف جان باتيست لوفيت دي كوفر.

قد ورثت عنه أو عنها ذلك. إنها لا تتمتع إلا بقدر قليل من قوة الإرادة، ولا تفارق المنزل. يجب أن نتصور إذن نوع المراقبة المفروضة عليها هنا، وما الذي تخشاه. تتسم النساء عادة بالتردد، ولا يتسمن بالمهارة. يجب أن يفكر المرء بالنيابة عنهن.

فيما يتعلق بالمراقبة لم يُثِر خوليان شكوكنا حيال الأمر بقدر ما أثارها أخوه المدعو أنطوني.

لا يشبه أنطوني أخاه على الإطلاق، فقد شابهت بنيته بنية الفلاحين؛ ممتلئ الجسد، لكن ساقيه رفيعتان بصورة مضحكة.

أسميناه «أنطوشكا ذا الساقين الرفيعتين». لم يشبه وجهه أيضًا وجه أخيه. لقد اتسم بوجه بسيط، غير مشذب أو متأنق، بل يبدو كما لو أن أجزاءه قد تم جمعها معًا وأُلقي به هكذا، وبالرغم من بساطته التي تبدو كبساطة وجه النعجة، هناك خصلة شعر رمادية تجعله يشبه الذئب. لدهشتنا، تبددت كل شكوكنا سدى، فلم تكن هناك أي مراقبة مفروضة على السيدة.

بعث نمط الحياة اليومية في منزل خوليان أقصى درجات الدهشة فينا، كما لو أنه قد تم تكييفه ليلائمنا تمامًا.

من المستحيل أن يتمكن أحد من رؤية خوليان النحيل هذا حتى موعد الغداء، والله وحده يعلم أين يختبئ هذا اللعين! قالوا إنه يجلس في الغرف الداخلية يفعل شيئًا ما، ربما مثلًا ينشغل بالكتابة الأدبية. أما أنطوشكا ذو الساقين الرفيعتين، فما إن ينهض من نومه حتى يخرج إلى مكان ما في الحقل، وبصحبته كلبه السمين، ولا يراه أحد أيضًا طوال

اليوم، حيث ينشغل بأمور المزرعة. لا يمكن للمرء إذن أن يتمنى ما هو أفضل من ذلك.

لا يتبقى أمام المرء إذن سوى جذب انتباه السيدة بالحديث وبالوسائل الأخرى. نظن أن الأمر لن يستغرق وقتًا طويلًا من فوبلاز قبل أن يحقق ذلك، لكننا نلاحظ أن فوبلاز يواجه صعوبة. إنه يبدو كإنسان يمسك ذئبًا من أذنيه؛ فلا يستطيع تحريكه أو تركه، وفي الآن ذاته تبدو يداه متورمتين وتوشكان على ترك الذئب يفلت منهما.

اتضح لنا حجم الارتباك الذي اعتراه لأنه لم يحرز نجاحًا كعادته، ولا يستطيع حتى تفسير السبب، ليس لنا وحسب، بل حتى لنفسه.

- ما الأمر؟

- وشرفي[1] لا أفهم شيئًا عدا أنها غريبة للغاية.

- لكنها امرأة ثرية مدللة، ومن الطبيعي أن تكون لها نزواتها.

يجري نظام الحياة اليومي للسيدة بطريقة تجعلها لا تشعر بالملل؛ من الصباح وحتى موعد الغداء يمكن رؤيتها تتجول باستمرار، بمفردها دائمًا، أو تمرح مع أغبى طائر في العالم؛ الدجاجة، وهي هواية غريبة بالنسبة لشابة متأنقة وثرية، ولكن ما العمل حيال نزواتها؟ من الواضح أنه ليس لديها ما تفعله، وهي ترتدي دائمًا ثيابًا بيضاء أو مبذلًا أصفر شاحبًا، وتجلس على طرف السياج الحجري الواسع للشرفة الخارجية تحت نبات الجنجل، ونبات خزامى على شعرها الأسود أو نبتة

(١) بالفرنسية في الأصل.

خشخاش مزدوجة، ويرغب المرء في أن ينظر إليها هكذا طوال اليوم. لا يوجد ما يشغلها سوى دجاجتها الصغيرة المحببة التي تجلسها على ركبتيها وتطعمها حبوبًا مقشرة. من الواضح أنها لم تحظَ إلا بقدر ضئيل من التعليم، ولا تعلم ماذا يمكن أن تفعل لتشغل نفسها. إذا لهت مع دجاجة فهذا يعني أنها تشعر بملل شديد، وحينما تشعر امرأة بالملل يأتي دور الفارس الشهم ليسليها. لكن لا شيء يجدي معها، حتى التحدث معها يبدو صعبًا لأن كل ما ستسمعه منها هو: «شتي، مولدوفانيشتي، كيرنيشتي»، ولا يمكن للمرء أن يفهم منها أكثر من عشر كلمات على الأكثر، ولم يكن بوسعها بتاتًا أن تفهم تعبير المرء عن عواطفه صوبها بلغة الإشارة. يئس فوبلاز تمامًا، وارتبك كلية عندما سخروا منه قائلين إنه غير قادر على منافسة دجاجة. أحطنا جميعًا بالسيدة لنرى من سعيد الحظ الذي سيحظى بها، لكن أحدًا منا لم يحالفه الحظ. تعترف لها بحبك فتنظر إليك بعينيها السوداوين وتقول لك: «شتي، إيشتي، مولدوفانيشتي»، ولا شيء آخر.

استاء الجميع من هذا الموقف الذي وجدوا أنفسهم فيه، بل ونشبت بعض المشاجرات، وشعر الجميع بالحسد والغيرة من الآخرين، وصار كل شيء مريرًا. باختصار وجد الجميع أنفسهم في موقف مقلق، حيث نحلم بها أحيانًا، أو نراقب بعضنا بسببها، أما هي فتجلس مع تلك الدجاجة ولا شيء آخر. هكذا ننظر إليها طوال النهار، ونتثاءب طوال الليل، ويمر الوقت ويجلب لنا معه مصيبة أخرى. قلت لكم إنه منذ اليوم الأول، ما إن انتهى الغداء حتى اقترح علينا خوليان لعب الورق. منذ

هذه اللحظة صرنا نلعب كل يوم، حيث نبدأ بعد الغداء، ونستمر حتى منتصف الليل، وسواء عاد الأمر إلى ذهننا المشتت أو إلى حدوث غش في الورق، فإن النتيجة واحدة؛ نجح الكثيرون منا في أن يخسروا آخر كوبيك في جيبهم. ينظف خوليان جيوبنا كل يوم. نعم، كما يقصون شعر الغنم بالضبط.

دمرنا أنفسنا وساءت حالنا، وضعفت قدرتنا على التفكير وفقدنا راحة البال، ولا أعرف إلى أين كان من الممكن أن يصل بنا الوضع لولا ظهور وجه جديد فجأة ربما جلب إلينا قلقًا أسوأ، لكنه مع ذلك أعطى دفعة لإتمام الأمر.

جاءنا بالمال موظف دائرة التموين العسكرية. إنه بولندي عجوز، لكنه وغد مريع، منافق بوجهين، وعرف كل شيء عن الجميع؛ عرف الملل الذي نعاني منه، وأننا نتثاءب ضجرًا. جاء معنا أيضًا ليتغدى عند خوليان، ثم مكث ليلعب معنا الورق، ولم ينظر الوغد إلى السيدة، وإذا به يقول فجأة في اليوم التالي: «لقد مرضت». كما تتوقعون، أصابته الحمى المولدوفية. لكن ما الذي فكر فيه بحسب ظنكم؟ بدلًا من أن يستدعي طبيبًا، استدعى القس ليصلي إلى الله من أجله. جاء القس، وكان من النوع الذي يشبه الصراصير فعلًا، والتحف بالسواد كاملًا، وبدأ ينشد بطريقة أسوأ من إنشاد الأرمن. على الأقل يمكن للمرء أن يفهم كلمتين من إنشاد الأرمن: «جريجوريوس أرمينيوس»، أما هذا فلا يفهم منه المرء كلمة واحدة.

لكن الوغد البولندي يعرف على الأقل بعضًا من هذه اللغة، حتى

إنهما صارا صديقين، وسُر كل منهما بالآخر؛ سُر القس عندما دفع له البولندي، وسُر البولندي عندما تعافى بفضل صلواته من هذه الحمى إلى درجة أننا فغرنا أفواهنا دهشة.

في المساء نبدأ في لعب الورق جميعًا في ضوء الشموع، يأتي موظف إدارة التموين ولا يلعب، ويقول: «لا أزال مريضًا». ويمضي مباشرة إلى الشرفة حيث تجلس السيدة تحت غسق السماء على البلاط الممهد. فجأة توارى كلاهما خلف نباتات الجنجل الكثيفة، وتلاشيا خلف ظلالها المعتمة. لم يحتمل فوبلاز، وهب من مكانه، لكنهما كانا يبحران في سلام في الخليج الصغير صوب الجزيرة القريبة. أبحرا أمام عينه حتى تواريا عن بصره.

أما خوليان الوغد فلم يبدُ عليه أي تأثر على الإطلاق. يخلط الأوراق وينظر إلى من غرقوا بالفعل في الديون.

* * *

الفصل التاسع

لكن يجب أن أحدثكم قليلًا عن الجزيرة التي أبحرا إليها.

عندما حدثتكم عن الإقطاعية نسيت أن أقول لكم إن أفضل ما فيها كان هذه الجزيرة الصغيرة التي تلوح من الشرفة الخارجية. كانت هناك حديقة أمام الشرفة مباشرة، ومن خلفها خليج، ومن خلفه جزيرة صغيرة، أو كما يقولون، تبدو مساحتها كمساحة فناء جيد في منزل أحد السادة مُلَّاك الأراضي. غطت الجزيرة كلها طبقة كثيفة من شجيرات صريمة الجدي، وشجيرات أخرى مزهرة مختلفة، كما استوطن الجزيرة عدد كبير من العنادل. العنادل هناك رائعة، ليست من النوع ذي الصوت المزعج كالتي في كورسك، لكنها تشبه العنادل في مدينة برديشيف. تألفت ساحة الجزيرة كلها من هضاب أو أكمات، وعلى إحدى هذه الأكمات شُيِّد منزل صيفي صغير، وتحت هذا المنزل ثمة كهف حجري يكون الجو فيه منعشًا جدًّا. هناك وضعوا أريكة قديمة يمكن للمرء أن يستلقي عليها، وقيثارة ذهبية كبيرة تعزف عليها السيدة وتغني. عبَّدوا الممرات حول الجزيرة، ووضعوا في أحد الأماكن بالناحية الأخرى من الجزيرة دكة معشوشبة يمتد أمام الجالس عليها منظر المرج. كانوا

يذهبون إلى هذه الجزيرة عبر طوف صغير رائع. زينوا الطوف بدرابزون على الطراز الشرقي، وفي منتصف الطوف مقعد ذهبي. تجلس السيدة على هذا المقعد، وتمسك مجدافين مبرقشين بمرح، وتُجدِّف. يمكن لشخص آخر أن يقف خلف مقعدها وحسب.

أسمينا هذه الجزيرة وهذا الكهف: «مغارة كاليبسو[1]»، لكننا لم نذهب إلى هناك بأنفسنا لأنهم قيدوا طوف السيدة الصغير بسلسلة. وجد موظف إدارة التموين مفتاح قفل السلسلة.

في الحقيقة أردنا أن نضربه وحسب، لكن الوغد تحلى بالشجاعة وهدأ الجميع. قال:

- ما الداعي إلى العراك؟ سوف أريكم الطريق بنفسي. القس هو من دلني عليه. سألته: «ما رأيك في السيدة؟»، فقال لي: «رائعة جدًّا. تهتم بالفقراء». تناولت خمسين قطعة ذهبية وقدمتها لها في صمت من أجل العناية بفقرائها، وهي أيضًا قدمت لي يدها صامتة، واقتادتني معها إلى الجزيرة. أقول لكم كل ما على المرء أن يفعله هو أن يضع في يدها كومة من العملات الذهبية، ومن دون أن يقول كلمة واحدة سيجد نفسه يحظى بالسعادة التي حظيت بها. منظر القمر هناك رائع، ونغمات القيثارة عذبة، لكني للأسف لا أستطيع نيل المزيد من المتعة لأن واجب العمل يناديني، وسوف أرحل عنكم غدًا، بينما أنتم ستبقون.

---

(١) مغارة حقيقية شهيرة في أوكرانيا.

هذا هو حل المعضلة إذن!

رحل ونحن ننظر إلى بعضنا: من يمكنه أن يضحي من أجل فقراء الإيبراشية المساكين بخمسين قطعة ذهبية؟ تظاهر البعض بالشجاعة. قال واحد: «كل ما في الأمر أني أنتظر وصول المال من المنزل»، وقال آخر الأمر ذاته، ولكن من المؤكد أن هناك فقراء في إيبراشياتهم أيضًا، لأن أحدًا لم يصل إليه هذا المال المنتظر!

فجأة، وسط هذه المغامرة غير المتوقعة، حطم فوبلاز السلسلة المربوط بها الطوف، وأبحر به وحده إلى الكهف، وأطلق النار على نفسه هناك.

الله وحده يعلم كيف تمت هذه الحادثة اللعينة! شعرنا بالأسف على رفيقنا، كما شعرنا بالحماقة نوعًا ما، بل شعرنا بالحماقة تمامًا، ومع ذلك تبقى الحقيقة المحزنة أن أحد الشجعان قد انتهى أمره.

أطلق فوبلاز النار على نفسه بالطبع بسبب الحب، وقد اتقد الحب في داخله إلى هذه الدرجة بسبب كبريائه الجريحة، حيث إنه اعتاد على تحقيق السعادة مع كل نساء وطنه سابقًا. دفناه بكرامة، وعُزِفت الموسيقى العسكرية، واجتمعنا جميعًا في غرفة واحد منا وشربنا نخب روحه، وتحدثنا عن أننا لا يجب أن نترك الأمر هكذا، وأننا إذا استمررنا في السلوك ببساطتنا الحالية فسوف نضيع. قال رائد الكتيبة، وهو متزوج، ويتسم بسعة الإدراك:

- لا تقلقوا. لقد أبلغت القيادة بالفعل أنني لا أضمن أن تكون هناك أسباب تمنعنا من الانسحاب من هذه الإقطاعية. أنتظر

غدًا أوامرهم الجديدة، ولندع هذا الخوليان اللعين هنا وحده! إقطاعية لعينة وسيد لعين!

سررنا جميعًا أيضًا بإمكانية الرحيل من هنا، لكن جميع السادة الضباط حزنوا في الوقت نفسه من فكرة الرحيل هكذا من دون معاقبة الأوغاد.

فكرنا في حيل كثيرة يمكننا أن ندبرها لخوليان وزوجته؛ فكرنا مثلًا في الاعتداء عليه أو حلاقة رأسه بطريقة مهينة، ولكن الرائد قال:

- عافانا الله أيها السادة. أتوسل إليكم ألا تفعلوا شيئًا كهذا، أو ترتكبوا أي فعل عنيف ضده مهما كان، ومن يدين له بمال فليقترض من أحد ويسوِّي حسابه معه، وإذا توصل أحد منكم إلى أي حيلة بريئة لاستعادة الشرف فلا مانع بالطبع.

إنها بلية ألا يكون في يد المرء ما يفعله ليستعيد شرفه.

قال الرائد أخيرًا إنه يخفي عنا شيئًا، وإن أمر التحرك من هنا في جيبه بالفعل، وإن غدًا سيكون اليوم الأخير الذي ننعم فيه بوجود سيدتنا الفاتنة هنا، وإننا سنفارق المكان في فجر بعد غد.

هنا ومضت فكرة في رأسي. قلت:

- إذا كنا سنفارق المكان بعد غد، فهذا يعني أن مساء الغد سيكون الأخير، لذا رجاء اتركوا لي الفرصة، وسأُلقِّن خوليان درسًا، ولن يتباهى بعد ذلك أمام أي شخص بأنه خدع ضباطًا روسيين.

البعض امتدحوني وقالوا: «أحسنت»، بينما لم يصدقني آخرون

وقالوا ساخرين: «وماذا تظن أنك ستفعل؟ الأفضل لك ألا تُورِّط نفسك معه». قلت:

- هذا شأني أيها السادة. سوف أتحمل النتيجة.

- ولكن ماذا سوف تفعل؟

- هذا سري.

- لكن هل سينال خوليان عقابًا؟

- عقابًا مريعًا.

- وسوف ترد لنا شرفنا؟

- قطعًا.

- أتقسم؟

أقسمت بظل صديقنا الراحل البائس فوبلاز الذي حكم على نفسه بأن يظل هائمًا في هذا المكان اللعين، وحطمت كأسي على الأرض مؤكدًا قسمي.

دعَّمني الرفاق جميعًا، ووافقوني وقبَّلوني بحرارة، وشربنا نخب قسمي، لكن الرائد وحده هو من امتنع عن تحطيم كأسه. قال:

- هذا مشهد مسرحي هزلي وليس أكثر من ذلك.

افترقنا في حالة رائعة. كنت واثقًا تمام الثقة من نفسي لأن خطتي جيدة جدًّا. لا بد أن حيلتي ستجعل خوليان يبدو كالأحمق تمامًا.

الفصل العاشر

حل اليوم التالي والأخير لوجودنا مع سيدتنا الجميلة. نال كل منا راتبه وسدد ما عليه كاملًا لخوليان، وتبقى لكل منا مبلغ تافه لا يحتاج حتى إلى حافظة تحمله. تبقى معي ما يقرب من مائة روبل، وفي هذا الوقت كان ذلك يُقدَّر بنحو عشر عملات ذهبية. لكن خطتي تطلبت على الأقل أربعين عملة ذهبية أخرى؛ فمن أين آتي بها؟ لم يكن لدى رفاقي هذا المبلغ، ولم أرغب في الاقتراض منهم لأن لديَّ خطة أخرى، وقد بدأت في تنفيذها فعلًا.

في المساء الأخير نذهب إلى خوليان، ويبدو شديد الود ويدعونا للعب الورق. أقول له:

- يسعدني أن ألعب، ولكن ليس لديَّ ما يكفي من المال لأراهن به.

يطلب مني ألا أخجل وأن أقترض منه. أقول له:

- حسنًا، فلتقرضني خمسين قطعة ذهبية.

- بكل سرور.

يحرك الكومة تجاهي. آخذ المال وأضعه في جيبي.

يُصدِّقني الوغد كما لو أننا جميعًا أوغاد. أقول له:

- اسمح لي، سأخرج لبرهة لأنعم بنزهة في الهواء الطلق.

أخرج إلى الشرفة الخارجية. يلحق بي رفيقان ويقولان لي:

- ماذا فعلت؟ كيف ستعيد له المبلغ؟

- لا تشغلا بالكما بالأمر.

- لكنك تعرف أن الأمر مستحيل. سوف نغادر غدًا. فَلْتُعِد المال له حالًا.

- سوف أعيده له.

- وإذا خسرت؟

- سوف أعيده في كل الأحوال.

كذبت عليهما كما لو أن خزانة الدولة بأكملها بين يدي.

انصرفا، أما أنا فذهبت مباشرة إلى السيدة، وانحنيت لها، وأعطيتها حفنة العملات الذهبية قائلًا:

- أرجو منكِ أن تقبلي مني هذا المبلغ من أجل فقراء الإيبراشية.

لا أعرف كيف فهمتني، لكنها نهضت سريعًا، وقدَّمت لي يدها، وتجولنا حول الزهور، وأبحرنا بالطوف.

* * *

الفصل الحادي عشر

ليس لديَّ ما أقوله عن عزفها على القيثارة. دخلنا الكهف، وجلستْ وبدأتْ تعزف بعض موسيقى الرقصات الشعبية القديمة. في ذلك الوقت لم تكن الأغاني الرومانسية مثل «يا نمري العزيز» قد ظهرت بعد، بل كانت هناك فقط تلك الأغاني الشعبية الراقصة البسيطة التي يمكن للمرء الرقص على أنغامها مرة واحدة فحسب، ولا يعرف المرء بعدها ماذا عليه أن يفعل. هذا ما حدث في هذه المرة؛ ففي البداية عزفت أنغام هذه الأغنية الشعبية الراقصة، ثم «إشتي مولدافانيشتي» وما إلى ذلك، ويمكنكم توقع ماذا فعلنا بعدها.

انتهينا وعدنا بالطوف في تمام الرضا.

* * *

الفصل الثاني عشر

سوف أعترف لكم بصراحة، لن أخفي عنكم أني كنت في حالة مزاجية رائعة لا تلائم على الإطلاق الخطة التي وضعتها. لكني حينها اقتربت من بلوغ الثلاثين، وهو العمر الذي تبدأ فيه حكمة المرء. تذكرت كيف بدأت حياة القلب برمتها، وكل هذه النبتات المتواضعة في الحقل على مبعدة من الوطن، وتذكرت كل هؤلاء الفتيات الأوكرانيات والبولنديات اللاتي التقيت بهن في أكواخهن الصغيرة المتواضعة، وفجأة تذكرت «مغارة كاليبسو» لعنة الله عليها، وهذه الإلهة الفاتنة، ولتقولوا ما تشاءون، ولكن هناك فعلًا ما يستحق التذكر! فجأة شعرت بالحزن لأني تركت السيدة تُقيِّد طوفها وحدها بالسلسلة، ودخلت الصالة التي كنت قد تركتها بينما يلعبون الورق، والآن أجدهم يتشاجرون، ويا له من شجار! يجلس خوليان، وقد نهض كل ضباطنا، وبعضهم قد ارتدوا قبعاتهم العسكرية عمدًا، وجميعهم يضجون ويتجادلون عن غشه في اللعب. لقد استولى على كل ما معهم مجددًا. يقول الضباط:

- سندفع لك، ولكن لو تحرينا العدل، فإننا لا ندين لك بشيء.

أدخل في اللحظة التي يقولون فيها هذه الكلمات، وأقول:

- وأنا أيضًا لا أدين لك بشيء. لقد أعطيت القطع الذهبية الخمسين التي أقرضتني إياها لزوجتك.

هنا ارتبك الضباط ارتباكًا مريعًا، أما هو فقد شحب وجهه تمامًا من فرط انزعاجه من أني فقته دهاءً. أمسك الورق بيديه، وقال مرتجفًا:

- أنت تكذب، أنت مخادع.

وألقى الوغد الورق في وجهي، لكني تماسكت وقلت:

- لا يا أخي، أنا لست مخادعًا، بل أسوأ من ذلك.

وصفعته. هز عصاه، وانتزع منها سيفًا، وهجم الوغد على رجل أعزل.

ألقى رفاقي بأنفسهم عليه، ولم يسمحوا له باستخدام السيف. أمسكه أحدهم من يديه، وأمسك آخرون بي، وصاح:

- أنتم أوغاد. لم يلتقِ أحدكم بزوجتي.

- حسنًا أيها العجوز، كُف عن محاولة إثبات ذلك. لقد رأيناها رؤية جيدة.

- أين؟ كيف؟

- كف عن الجدال بشأن ذلك. إننا نعرف زوجتك جيدًا.

رد على ذلك بأن انفجر في الضحك كالشيطان، وبصق، وخرج من الباب، وصفقه من خلفه.

الفصل الثالث عشر

ماذا تظنون؟ كان الرجل على حق!

لا يمكنكم حتى أن تتصوروا المكيدة التي خُدِعنا بها. مكر وخسة لا مثيل لهما. ما حدث هو أننا لم نرَ زوجته فعلًا ولا لمرة واحدة. لقد اعتبرنا غير مستحقين لنيل شرف التعرف على أسرته، واستطاع أن يخفيها طوال مدة حضورنا عن أعيننا في هذه الغرف البعيدة التي لم ندخلها. هذه السيدة التي جعلتنا نجن بها ونُقبِّلها من يديها وحتى قدميها من فرط السعادة، بل وواحد قتل نفسه بسببها، كانت ببساطة عازفة قيثارة لعينة من المقهى يمكن استئجارها للرقص بملابس حواء مقابل قطعة ذهبية واحدة! لقد استأجرها من المقهى منذ يوم وصولنا بهدف الربح، وهو يشاركها الدخل الذي تناله. حتى هذا الخوليان اللعين الذي لعبنا معه الورق، لم يكن في الحقيقة هو خوليان، بل غشاش في لعب الورق قد تم استئجاره، أما خوليان الحقيقي فهو أنطوشكا ذو الساقين الرفيعتين الذي يمضي وبصحبته كلبه السمين للصيد طوال الوقت. هو العقل المدبر خلف كل ذلك! هناك محتالون حقيقيون؛ محتالون لا مثيل لهم. فلتحكموا الآن بأنفسكم: ما الذي يمكننا أن نشعر به نحن الضباط في

مثل هذا الموقف الأحمق؟ ومن الذي صرنا تحت رحمته؟ بوسعي أن أقول إننا صرنا تحت رحمة الأحقر والأدنى في هذا العالم.

اكتشفت كل ذلك، ولكن في لحظة متأخرة جدًّا؛ عندما قُضِي على مهنتي العسكرية تمامًا بسبب هذه الدناءة، والفضل في ذلك يعود إلى غباء رفاقي. استاء السادة الضباط من سلوكي، ووجدوا أني سلكت سلوكًا غير شريف حينما أفشيت سر السيدة لزوجها. يا للغباء! طالبوني بأن أترك الفوج. لم يكن في يدي شيء، وفارقت الفوج العسكري فعلًا. لكن عند مروري بالمدينة كشف لي اليهودي كل شيء. قلت له:

- قُل لي لماذا قال القس عن السيدة إنه يمكن إعطاؤها بعض المال بذريعة أنه للفقراء؟

- القس محق، لكنه قال ذلك عن السيدة الحقيقية التي جلست في الغرف الخلفية، لا عن تلك الخنزيرة التي ظننتوها قندسًا[1]!

باختصار لقد استُغفِلنا تمامًا! أنا إنسان قوي البنية، لكن ما سمعته رج كياني، حتى إن الحمى المولدوفية أصابتني. عدت وأنا أجر نفسي بصعوبة إلى حيث القلوب البسيطة في الوطن، وسعدت بأن نلت وظيفة في مدينة يهودية صغيرة. لا أريد أن أنكر أني تشاجرت معهم كثيرًا، وأعترف أيضًا أني علَّمتهم بعض الدروس بقبضة يدي، ولكن حمدًا لله، عشت حياتي، ونلت نصيبي، وعندما أتذكر هذه الحمى المولدوفية، تعاودني الرعشة مجددًا.

---

(١) هناك نظرة تحقيرية في التشبيه بخنزير، كما هو الأمر في الثقافة العربية، ونظرة إلى القندس بوصفه حيوانًا أرقى، ربما لأن هذا الحيوان شديد المهارة في بناء السدود.

بهذا الشعور المزعج الذي انتاب الراوي، عاد مجددًا لإفراغ محتويات وسادته الكبيرة، وصب لنفسه كأسًا من هذا السائل الأرجواني المكتوب على زجاجته «حتى الرهبان يتقاسمونها». وقال:

- اشربوا أيها السادة في نخب اليهود والقضاء على الرومانيين المحتالين الأشرار.

- لماذا لا؟ سيكون الأمر رائعًا.

وقال شخص آخر:

- ألن يكون من الأفضل في هذه الليلة التي وُلِد فيها «صديق الخطاة[1]» أن نتمنى الخير للجميع، ولا نتمنى شرًّا لأحد؟

- رائع! رائع!

وافقه الرجل العسكري وقال: «أوافقك[2]»، وشرب ما في كأسه.

* * *

مكتبة
t.me/soramnqraa

(١) الإشارة إلى السيد المسيح لأن القصص الإنجيلية صوَّرته ينشد دائمًا توبة الخطاة، ويذهب إلى بيوتهم ولا ينبذهم؛ الأمر الذي جعل رجال الدين اليهود يهاجمونه بوصفه صديقًا لهم.

(٢) بالألمانية في الأصل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تضم هذه المجموعة ثلاث قصص مختلفة الشكل والنكهة، حاولنا فيها أن نقدم اتجاهات مختلفة من أدب ليسكوف. في قصة "السيدة مكبث" وهي من أشهر قصصه، سنجد الحكاية الصاخبة والانفعالات المرعبة والجرائم المريعة، وفي قصة فنان الشعور المستعارة سنلتقي بحكاية مؤلمة وساخرة عن حياة نوعية مختلفة من الأقنان غير الفلاحين قبل إلغاء القنانة. في قصة خداع سنجد النبرة الساخرة ذاتها، ولكن تلك المرة يصوِّر لنا ليسكوف حياة الضباط الروس الذين ينتقلون من مكان إلى مكان داخل أراضي الإمبراطورية الشاسعة.

يصعب تصنيف أعمال ليسكوف تحت نوعية أدبية واحدة، لكن الأمر المؤكد أنه أبرز وسط هذه الحكايات موهبة في السرد والحكي رائعة، كما عبّر تعبيرًا عميقًا عن المجتمع الروسي في أيامه. قال البعض عنه أنه أشد الكتّاب إخلاصًا للروح الروسية، وأنه خير تعبير عن العصر القيصري.

هذه فرصة للتعرف على أحد أهم أقلام العصر الذهبي للأدب الروسي.

ISBN 978-977-765-339-8
9 789777 653398